fb/mashro3pdf

روايات الهلال

سرسع فل سع سرسع فل سع سرسع فل سع سرسع

مقامات عربيـــة

بقلم

محمد ناجى

●

دار الهلال

fb/mashro3pdf

الغلاف للفنان:

حلمى التونى

fb/mashro3pdf

مَوْقِعة الأَرْنب

لمّا لحس الجرب شعر سعد بن أرنبة؛ غطّى قرعته بطرحة، وكحل عينيه وخلع نعليه، وعمل شيخ عرب. ولكي يقنع الناس بوضعه الجديد؛ نفخ صدره وملأ شدقيه بالهواء، فكان إذا تكلم بعبع، فلا نفهم نصف كلامه.

وكان على رأس كل حارة في زماننا شيخ عرب، ولكل حارة حيوان حارس تتخذه رمزاً لها، ففرحنا حين ظهرت أمارات النجابة على سعد، واتخذناه شيخاً، واتخذنا الأرنب رمزاً لنا.

ولمّا كانت ليلة البيعة؛ سلخنا الأرانب، ودبغنا جلودها وعلّقناها على أبواب بيوتنا، ثم عوّجنا الطواقي وحزّمنا خصورنا بالشيلان، وسرنا حول سعد في موكب مهيب ونحن نتراقص بالنبابيت ونرجز:

ـ يا سعد يا ابن أرنبة

لحست دماغك ثعلبة

فانبسط قلب سعد، وفرح بنا وضحك:

ـ كَعْ كَعْ.

حين رجَزنا طلع الكلام من أفواهنا عفو الخاطر، وكان قصدنا بالثعلبة الجرب الذي لحس شعر رأس سعد، لكن أصحاب الغرض حرفوا مقاصدنا، فحين سرت أنباء عزنا، حسدنا أهل الحارات المجاورة. وكانت حارة الثعلب أكثر الحارات نقمة علينا، إذ سعى كبراؤها إلى دار شيخهم وزعيمهم فيْص بن ثعلبة، فأيقظوه من غفوة

fb/mashro3pdf

الظهيرة، وبعد أن شربوا قهوتهم استأذنوه في الكلام، وسألوه:

ـ عرفت يا طويل العمر؟

ـ بَعْ .. بَعْ ؟

ـ رفعوا النبابيت فاغتروا بأنفسهم، ورجزوا حول صاحبهم فانفلت لسانهم، وجرّحوا المقامات، ولم يراعوا الحرمات.

ـ بع .. بع؟

ـ رجزوا حول صاحبهم فقالوا: *"يا ابن أرنبه لحست دماغك ثعلبه"*.

ـ بع .. بع؟!

ـ فيها الكثير يا طويل العمر؛ ثعلبة هي أمك ورمزنا الحارس، وهم شبّبوا بها على الملأ، وإذا سكتنا هذه المرة فما ندري ما يقولون بعدها.

فانعقدت ريح الغضب في بطنه، وصاح:

ـ بع .. بع.

ـ نعم؛ نعم هي الحرب يا طويل العمر.

لما دقّت طبول الحرب جمعنا سعد بن أرنبة على المصطبة، وجلس وسطنا كأنه واحد منّا، وعلى أكتافه عباءة من فراء الأرانب. وشاورنا وطلب رأينا، فقال أهل الرأي:

ـ هم أصحاب قوة وبأس، ولا قبل لنا بحربهم يا طويل العمر؟

ـ بع .. بع؟!

ـ نحن أهل حداثة لم ننظم أمورنا بعد، ولا سلاح لدينا، وعندهم أحدث الأسلحة وأشدها فتكاً.

ـ بع .. بع؟

fb/mashro3pdf

ـ يدبغون ذيول الثعالب بالملح، ويعلقونها في الشمس حتى تنشف وتصير سياطا، فإذا طالت أحدنا لسعة منها ازْرَقّ جلده وسقط من طوله، وأنت لا ترضى لنا الضرب والمذلّة يا طويل العمر.

ـ بع .. بع؟!

ـ لكل قوم فطرة جلبهم الله عليها، وموهبة ميزهم بها على غيرهم، فإن كانوا أهل حرب فنحن أصحاب موهبة في الجري. والرأي عندنا أنهم إذا هجموا هربنا، وإن طاردونا جرينا، فلا تطولنا أيديهم، ويرجعون خائبين، لم يحققوا غرضا ولم يشفوا غليلا.

فاستحسن كلامنا، ومد لنا يده فعاهدناه على الولاء والصبر، وصحنا صيحة رجل واحد:

ـ بع .. بع.

فلمّا جرت الموقعة انقطعت أنفاسهم من الجري خلفنا، وصاروا مضحكة لكل من رأى وسمع. فما كسبوا منها إلا تضييع الوقت، وتعطيل المصالح وفُرْجة الناس عليهم، وعادوا كما جاءوا دون أن يشفوا غليلهم.

ولما اطمأنت قلوبنا لذهابهم رقصنا وتنططنا من الفرح، ورفعنا سعد على أكتافنا وهشّكْناه، وقال شاعرنا:

ـ ولا يطول الثعلبُ الأرانب

هاه .. هاه

فالطبع عند كل قوم غالب

هاه .. هاه.

وقد صارت هذه الموقعة مفخرة لنا، ودونها حكيمُنا في دفاتره وهو

fb/mashro3pdf

يحصى الصفات الكاملة لشيخ العرب، حتى لا تضيع الأصول، ويكون الناس على بينة من أمرهم. فكتب: *"ويكون من تمام كمالِه أنه إذا شرب قَرْبع، وإذا ضحك كَرْكع، وإذا حزن سرسع، وإذا غضب جَعْجع، وإذا تكلّم بَعْبع، وإذا حارب فلسع"*.

fb/mashro3pdf

تحت القبّة شيخ

وخَلَف وَعْدُ سعدا فبزّ أباه في ثلاث وقصّر في ثلاث. أما التي بزّ فيها فهي القربعة والكركعة والسرسعة، أما غيرها فخمل ذكره فيها؛ ما غضب قط فما جعجع، وما حارب قط فما فلسع، وكان ثقيل اللسان إذا تكلم تعتع فاستبدل التعتعة بالبعبعة، فقال حكيمنا: *"أما هذه فنقدر عليها"*، وكشط في كتابه وصحّح: *".. وإذا تكلم تعتع"*، فصارت من الأصول الصحيحة. واستقرت لوعد بذلك أربعة هي التعتعة، والقربعة، والكركعة، والسرسعة.

ونبه وَعْد من صغره، فحين اختتن قصّ الحلاق منه نصف رطل وقال: *"تحت القبة شيخ"*. وفهمنا الإشارة، فدبغنا غلفته، ورفعناها راية على داره إعلانا لعزنا، ورجز شاعرنا فقال:

ـ تصْدَح تحت القبّة الحمامة

كأنها لعزّنا علامة.

وجاء كلام شاعرنا ثقيلاً فصعب على الألسن حفظه. وزاد أنه أخطأ حين قال "تصدح" فاهتم في كنايته بالصوت وكان الأولى أن يهتم بالحركة، وقال "كأنها" فباعد المسافة بين الكلام والمراد وجاء المعنى على الاحتمال فضعف، ثم أنه قال "لعزّنا" والأفصح أن يقول "على عزّنا".

وكانت زوبة أفصح منه وأنصح حين غنت:

ـ رقَص الحمام على دكّة الشهْبندر

fb/mashro3pdf

ورشّ على شبابيكنا ميّه بسكر
واما الصبية انقصّعت كَعْبلها
وفَرَط على منديلها رمّان أحمر.

ولا يعيب قول زوبة إلا كسر في أول البيت الثاني، ولكنها كانت تخطف الكلام في الغناء فلا يظهر عيبه.

والدكة المقصودة في غنائها هي تكة السروال. والمقصود بالشهبندر كبير التجار وهو لقب من ألقاب وعد، ذلك أنه برع في البيع والشراء، واحتكر تجارة القراطيس، فتحكم في أسواق اللب والترمس والطعمية، وكل صنف يلزمه قرطاس.

وكان لعظم همته يجمع الورق من الشوارع ويكوّمه أمام المصطبة، ثم نجلس فنقرطِس حتى تكون أمامنا أكوام عظيمة من القراطيس، فيبدأ البيع ويفتتح المزاد. وزاد في عمله أنه كان أول من استخدم الصمغ واللصق في عمل القراطيس، فصارت لنا منها صناعة وتجارة ووجاهة.

ولفطنته تجنب الكلام حتى لا ينكشف عيبه في التعتعة، فكان إذا جلس على المصطبة ليشرب فنجل وبرّق وكلم الحسان بالنظر والغمز، فيفهمن من نظراته أبلغ المعاني، وهو في مجلسه يغرف الخمر بالكوز من الطست ويقربع، فإذا غمزت السنارة كَرْكع.

وكان ليل قربع فيه وكركع حتى ثقل جسمه، فقمنا وتركناه على المصطبة. ومرت به زوبة وهو ذاهل مسحور، وكانت عائدة من عرس وخلفها بنات ينقرن على دفّ نقرا لطيفا فيه تعب وكسل، وهي بينهن تدندن:

fb/mashro3pdf

ـ برْطَع البدر في سماء الغرام
وسقاني من خمره ما سقاني
قلت: يا وعد شخلعتني الأماني
فتعطّف بقبلة في المنام.

والبرطعة مشي لطيف، وهو بين السير والقفز، وفيه عجب واختيال وأمان، وغلب إطلاقه على ذوات الأربع. والشخلعة معروفة؛ يقال "شخلع المرأة" أي دلّعها، "وشخلعته" أي لعّبته على الشناكل.

فلما غنت زوبة انسحر قلب وعد وزاد ذهولا على ذهوله، ومد لها حبال نظراته فكعبلها. وصرفت زوبة البنات، وجلست جنبه فشخلعها وشخلعته حتى عرفت ما في نفسه، فأشفقت على نفسها من هول أمره، وقالت: *"ما تقدر عليه غير بقرة"*. وفكرت ودبرت وقالت لنفسها: *"ما أقدر أن أرده، لكنني أمنّيه بالخيال فأنجو"*.

فأبدت له الود، وسألته:

ـ تحت القبة شيخ؟

ـ كع .. كع.

ـ فلماذا لا يزورني في المنام؟

فتعجب و سألها:

ـ تع..تع؟؟

فعملت له الوصفة، ودلّته على السر الذي يدخل به دماغ النائم. فلما جرّب الوصفة أفلح، واستحسن أفعال الخيال فأكثر منها، وطاح في البلد فما نجا واحد من أفعاله، ولا بقي دماغ لم ينخرم.

fb/mashro3pdf

ولّما أعجبه حاله توسّع في الشغل، فنصب سريره على المصطبة، وخصص مواعيد ثابتة للعرض، فكان يبدأ بعد العشاء وينتهي عند منتصف الليل. وهو طوال الوقت يداعب بنات خياله، يقبلهن ويعانقهن، ويتدحرج بهن من فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق، ثم يمد يده فيملأ الكوز من طست الخمر تحت السرير ويقربع.

وقد عملنا معه بهمة، فنظفنا مداخل الحارة، وعلقنا الفوانيس، وفرشنا الحَصير أمام المصْطبة، وعملنا تذاكر للفرجة. وكنّا نطوف على المتفرجين نبيع اللب والترمس للتسلية.

ولما تطورت الدنيا صار منا علماء وخبراء، وبفضلهم تحولت مصطبة وعد إلى محطة للبث والإرسال، واشترى كل واحد منا هيكل سرير يناسب قدرته واتساع بيته، ووصل ما بين قوائم سريره وقوائم سرير وعد بسلك مجدول، فصار كل ما يجرى على سريره نراه في بيوتنا بعين خيالنا، وتحصل لنا به المسَرّة.

وراجت في ذلك الوقت حرفة النجارة وصناعة الكابلات، فصنع أهل الخبرة هياكل أسرّة بأحجام تتدرج بين ثماني بوصات وست وعشرين بوصة. واشترى منها جيراننا، فمددنا لهم الكابلات، وبعنا لهم الخيال وحصّلنا الاشتراكات، وكانت خمسة قروش للأبيض والأسود وربع جنيه للفرجة بالألوان، وإذا تأخر واحد عن دفع الاشتراك قطعنا عنه السلك.

وقد راجت أعمالنا وفنوننا بين الناس، وجعلت لنا كلمة عليهم ومكانة عندهم.

fb/mashro3pdf

كان عهده عهد مسرّة وربح، لكن أيامه انطوت كما يمر الخيال. ومات وعد ذات ليلة وفمه يتأهب للقبل ويداه ممدودتان للعناق. وقد قطع الحكيم الإرسال، ونعاه إلى الأمة بأفصح لسان، وقال فيما قال: *"في عهده ملكنا العالم بنصف رطل"*.

fb/mashro3pdf

الجهاد الأكبر

أما رعد فخالف من سبقاه وكان إذا تكلم لعلع، وهي غير "لع..لع" عند صعايدة مصر التي تفيد الرفض وعدم الموافقة، وهو معنا وجود له في لغتنا. وقد عالج الحكيم الأمر بيسر فكشط في كتابه وصحّح، واحتاط للأمر فكتب: *".. وإذا تكلم بعبع أو تعتع أو لعلع"*.

وكان رعد من أولي العزم، بزّ من سبقاه ومن خلفوه في الفلسعة، فكثرت فلسعاته حتى كتبنا فيها الملاحم الطوال، وكتب عنه حكيمنا: *"وعشنا في رباط من يوم جلس إلى يوم قتله ظله"*.

وكانت رؤوسنا قد انخرمت في عهد سلفه وأبيه وعد فتوسّعت مداركنا، وسدّت خيالاتنا الآفاق. وكان رعد قد رأى ما رأينا، وعقد عزمه على أمر لكنه تركنا نختاره بحريتنا، فجمعنا على المصطبة، وسألَنا:

ـ لع .. لع؟

ـ نعم؛ نعم يا طويل العمر نراها، هي خيالاتنا ظلالنا تتبعنا وتتربّص بنا وتنقض علينا إذا طلعت الشمس، ولا نعرف ما يكون من أمرها معنا. لم نكن نراها من قبل، لكن حكمة أبيك وسّعت مداركنا فرأينا.

ـ لع .. لع؟

ـ لك الرأي ومنك الأمر وعلينا السمع والطاعة.

fb/mashro3pdf

ومد يده فعاهدناه على الولاء والصبر، وصحنا صيحة رجل واحد:

ـ لع .. لع.

وخطب فأفصح وأمر فلعلع:

ـ لع .. لع.

وفسرها حكيمنا من بعده:

ـ اجتنبوا ظلالكم، وفلسعوا من كل نور ذي ظل.

ففلسعنا.

وقال فيما قال:

ـ فُطَوا، ولا تنطَوا.

والنطّ والفطّ بمعنى واحد عند العامة، لكن غلب على النط معنى الإقدام وعلى الفط معنى الهرب، يقال: " نط عليها ففطّت منه."

وقد نفذنا خطته كما أراد، فكنا نركض تحت الأشجار وخلف الجدران، فإذا زحفت إليها الشمس وظهرت ظلالنا، فَلْسعنا إلى مكان أكثر أمنا.

ووسّع رعد خطته بعد أن شاور أولى الأمر، وأبلغنا الحكيم أوامره الجديدة:

ـ حتى ظلال الأشجار والبيوت لا تأمنوها فكل ذي ظل خوان، فلسعوا تسلموا، وإذا تلاقيتم فتعارفوا بكلمة السر، حتى يفرق كل واحد بين صاحبه وظله، وبين أخيه وظله، وبين زوجه وظله، وبين نفسه وظله.

فلزمنا بيوتنا طالما بقيت الشمس. وكان الواحد منا إذا خرج لسبب طارئ فلسع مستبقا ظله، فإذا تخطى النقطة التي تطرح بعدها الشمسُ

fb/mashro3pdf

ظلّه أمامه، استدار ليعيد ظله إلى الخلف، وفلسع.

كانت تلك أشقّ المعارك وأطولها، ضاع كل نهار فيها في الجري والفلسعة. وحتى الليل لم يسلم. فقد كانت الليالي قسمة بيننا وبين القمر، له أربع عشرة ليلة يسطع فيها فنختفي عملا بأمر زعيمنا: *"واحذروا ظلال القمر"*، فإذا انتهت ليالي القمر صارت بقية الشهر لنا، فنخرج ونرتع فوق الأرض، ونلتقي بأهلنا، ونتعارف بالصوت.

وخلال تلك الحرب الطويلة هجرنا أعمالنا. فلا نجارة ولا تجارة ولا قرطسة. وتحولنا جميعا إلى الرعي، فكنا إذا حل الظلام وامّحت الظلال نخرج بقطعاننا، فنتركها ترعى، ونجلس إلى زعيمنا نجدد عهد الولاء والصبر. وقد وافق الظلام قطعاننا فرتعت ونمت.

وفي عهد رعد وقعت فتنة المرآة التي كادت تزلزل صفوفنا. ذلك إن رعد كانت له صبية في عمر الشجرة المزهرة أسماها دَعْد، عوّضته بجمالها عن قلة الخلف وانعدام البنين، سُرّ بها قلب أبيها، وانسحر بحسنها كل من له عين، وقال عنها الحكيم فى كتابه: *"لو أفلحت لحكمت"*.

فلمّا أينعت وأزهرت حلت بنا الحرب الكبرى، حرب النور والظلال، فطوت الصبية أغصانها على زهرها وثمرها ولزمت حجرتها، وطال اعتكافها حتى ألفته وألفناه منها.

وفي ليلة من ليالي الظلام مشى بيننا صوت الحكيم هامسا:

ـ أظنهم يكذبون.

ـ من يا حكيم؟

ـ نفر منكم يحدثون بالإفك.

fb/mashro3pdf

ـ فخبّرني يا حكيم.

ـ يقولون إن دعد بنت رعد أشعلت قنديلها، فانشق لها ظل، وفتنتها المرايا والظلال، فلما رأتها انسحرت. وفجّر بها ظلها.

ـ بنت رعد؟!

ـ أمسك لسانك فهي بنت سيدنا وحامينا، ولو سمعت هذا القول منك مرّة أخرى لأغلقت شفتيك بالخيط والإبرة.

وقال الحكيم لآخر:

ـ أسمع غناء جميلا في الظلام. لكن أذني شاخت فلا أستطيع أن أميّز صاحب الصوت.

ـ لا أسمع أيها الحكيم.

ـ لو أسلمت أذنيك للنسيم لسمعت، أه ما أجمل الصوت وما أرق المعاني.

ـ ربما هي دعد بنت رعد.

ـ اخرس، أبوها سيدنا وحارسنا.

ودار حديث الفتنة، حتى شاع أن دعد بنت رعد خلف الأبواب المغلقة، تقف تحت القنديل المعلق، تفرد يديها إلى ظلها الممدود على الحائط وتنشد:

ـ كيف للوردة أن تزهو بما

أبدعته دون عين ناظرة

وكروم ثقلت أعطافها

كيف ترضى دون كفّ عاصرة.

وفاض سيل الكلام حتى هدر، وأغرق جسور الحذر، ولطم سمع

fb/mashro3pdf

أبيها فخرم طبلته:

- لع .. لع.

فدنا منه الحكيم وخشع صوتُه:

- أمرك سيدي.

- لع .. لع؟!

- نعم سمعتُ ما سمعتَ، ونهرتهم فلم يمسكوا ألسنتهم.

- لع .. لع؟

- ظنته من لغو القول فلم اهتم بنقله إليك، كنت أظنه لغوا.

- لع .. لع .. لع.

- لم اكن أنتظر أمرك سيدي، فعلتها وتجسست حتى يطمئن قلبي.

- لع؟

- نعم سمعت.

- لع؟

- ورأيت يا سيدي، نعم رأيت.

- لع .. لع .. لع؟!

- كيف أقدر، أنت سيدي وهي بنت سيدي؟

- لع .. لع.

- بل الويل لأعدائك.

حطّ علينا صمت ثقيل فانهدمت أكتافنا، واشرأبت آذاننا في الظلمات، ثم همس صوت:

- جُنّت بنت رعد.

fb/mashro3pdf

ـ بل خانت.

فرعدَ رعدُ:

ـ لع.

ثم نهض، وسمعنا صوت عباءته تخفق في الريح، وخطى الحكيم تتبعه.

فلمّا كانت الليلة التالية؛ أمَرَنا الحكيم فحفرنا حفرة كبيرة، ووقفنا حولها ننتظر. ثم مشى رعد إلى داره، وسمعناه ينادي ابنته، والحكيم يقول لها: *"اتبعينا يا دعد"*، وسمعنا خفق باب وحفيف أغصان فقلنا: *"طلعت الصبية"*.

كانت خطى رعد ثقيلة متطوحة، تتبعها خطى الحكيم، ثم خطى دعد خفيفة محاذرة، وكانت أنفاسنا ثقيلة وحارة، وآذاننا شاخصة تنتظر. سمعنا الصرخة، وصاح الحكيم:

ـ اردموا الحفرة.

تخبّطت الصبية في التراب والظلمات، ورجف قلب رعد:

ـ لاع.

صاح الحكيم:

ـ أسرعوا؛ أتموا العمل قبل أن يطلع النور ذو الظل.

وقال الحكيم في تلك الليلة:

ـ له المجد رعد بن وعد بن سعد، جاهد نفسَه فغلب، وهو الجهاد الأكبر.

وبعدها تعتع رعد، لكن همته لم تضعف. وأمر حكيمَنا أن يحول مجلسنا إلى حلقة للدرس، فعلّمنا الحكيمُ مواقيت الظلام، وتلا علينا

fb/mashro3pdf

كتاب تاريخنا. فرددناه خلفه حتى حفظناه.

ولو عاش رعد لكان لنا شأن آخر، ولكنه مات فجأة؛ إذ كانت ليلة من ليالي الظلمات وقف فيها خطيبا. ومرق شهاب فأضاء الأفـق ورسـم لرعد ظلا. فخضّه الخوفُ وسقط من طوله وفي جنبه طعنة ظلت تـنزف حتى مات. وقال عنه الحكيم في كتابه: *"وثب عليه ظلّه فقتله"*.

fb/mashro3pdf

ولاية الحكيم

وبموت رعد انتهت إمارة الوجهاء، وبدأت ولاية الحكيم، ذلك أن دعد بنت رعد كانت آخر نقطة في ظهر سلالته، فلمّا ماتت ومات انقطعت السلالة.

وكانت ليلة وثب الظل على رعد فقتله ليلة الحيرة الكبرى، هامت فيها قطعاننا في ظلمات الحزن، وتاهت منّا الفكرة حتى سمعنا صوت الحكيم فلقيناها:

ـ يا أبناء سعد ووعد ورعد وكل من يستجد؛ كل عمر ينفد، وما مضى لا يرد، فما أنتم فاعلون في غد؟

فلطشتنا الحيرة وسقطت ركبنا على تراب الأرض، حتى قام حصيف منّا فقال:

ـ مالنا منك بد يا حكيم بني سعد؛ كانت لك المشورة عند من سلف، ولك الكلمة على من خلف، فأنت لها اليوم، ولها في غد، وبعد بعد غد.

فصحنا صيحة رجل واحد:

ـ لها إلى الأبد.

فقال الحكيم:

ـ لا أقبلها إلا بشرط.

ـ شرطك لا يرد.

fb/mashro3pdf

فصمت وطال صمته، حتى خشينا أن يدركنا نور الصبح وتفرقنا الفلسعة قبل أن يدركه الكلام، وصرنا نقول له:

ـ ما شرطك يا حكيم؟

ـ أن يكون الأمر بيننا على قاعدة "هات .. وخد".

فصفقنا وهللنا، واستحسنا كلامه.

ـ قبلتم؟

ـ قبلنا يا حكيم.

ـ فقد سبقتكم إلى "هات"، فهاتوا أيديكم.

رضينا بالقسمة، وبايعناه البيعة الكبرى على هذا الشرط، فشمّرنا عن سواعدنا، وصحنا صيحة رجل واحد:

ـ خد.

fb/mashro3pdf

وحكمَنا على هذا الشرط، فأخذ وأخذ وأخذ حتى جفت جرار الماء، وفرغت حلوقنا من الهواء. وضاق صدر شاعرنا فقال:

ـ لو شملت أحكامه النيلَ نفد

من قوله "هات" وقول النيل "خد".

فلما بلغه القولُ ضحك حتى صفَر حلقه، وجمعتنا الصفارة حوله فوق تل في ليلة من ليالي الظلمات:

ـ اجلسوا.

فجلسنا، وشخصت وجوهُنا تنتظر صوته:

ـ سمعتم ما قال شاعري؟

ـ هه؟!

ـ سمعتم؟

ـ هه يا حكيم؟

ـ بل سمعتم فلا تستهبلوا وتقولوا: *"هه .. هه"*، سمعتم لكن ما وعيتم.

ونادى الشاعر:

ـ تعال يا ناصح.

وأمره:

ـ اجلس.

سمعنا صرير ركبتيه وهو يجلس، ثم سمعنا الحكيم يقرّبه ويربت

fb/mashro3pdf

كتفه:

ـ اقترب.

فقلنا لأنفسنا: *"يلاعبه بالحبل ليقتله بالحية"*.

ـ ابن من أنت؟

ـ ابن إمعة الإمعة.

ـ كلهم إمعة، فابن مَن مِن النساء؟

ـ نعناعة.

ـ كلهن نعناع؛ طيبٌ شمّه، حَسنٌ ضمّه.

وأمره:

ـ أسْمِعنا ما قلت يا ناصح.

فظل يتنحنح حتى نفخ شيطان الشعر في دبره، فقوى صوته ونطق:

ـ لو شملت أحكامه النيل نفذ

بأمره إلى الفراديس وغذ

وانتشت الأفلاك في سمائها

من قوله "هات" وقول النيل "خذ".

فضحك الحكيم حتى صفّر حلقه، وقال:

ـ يا ولد يا ناصح؛ أحسنت، وأنقذت رأسك بنقطة.

وقلنا لأنفسنا: *"ما سمعنا أسخف من هذا الشعر"*، لكننا فرحنا بسلامة شاعرنا، فصفقنا وحيّيناه:

ـ يا ناصح .. يا ناصح.

وقال الحكيم:

ـ كادت نقطة أن تضيّع شاعركم. فيسقط رأسه ما بين دال نفد

fb/mashro3pdf

وذال نفذ.

وقال الحكيم في تلك الليلة:

ـ يا أبناء سعد ووعد ورعد وكل من يستجد؛ بيني وبينكم شرط "هات وخد".

ـ شرطك لا يرد.

ـ فهاتوا آذانكم أعلمكم الفصاحة والنصاحة.

وكان أول كلامه أن قال:

ـ لسانك حصانك؛ فألجمه يحفظك، وأسْرِجه بزخرف القول يسلك بك طرق العز والسلامة.

وقال الحكيم فيما قال:

ـ الأصل في اللغة معاني المثال لا وصف الأحوال، فالمثال ثابت والحال متغيّر، وأفصح الكلام ما وافق المثال.

ومن الفصاحة أن تقول "بكى" لا "عيّط"، فالبكاء نزول الدمع مع ثبات الوجه والبدن، وهو من صحيح الطباع، والعياط نزول الدمع مع ارتعاش الشفتين ومطّ الرقبة ووضع اليد على الخد، وكلها أحوال شاذة مستقبحة.

ومن الفصاحة أن تقول "مسكين" لا "غلبان"، فالمسكين من سكنت جوارحه فعقل فرضى، والغلبان من غلب على أمره فتظاهر بالرضا، فهو منافق ومأواه جهنم.

وقال الحكيم:

ـ صفّوا اللغة من كل ما لاكته ألسنة العامة، لأن المعاني إذا لاكتها ألسنة العامة سفلت، فلا تقل "نط" و"هاص" و"زاط" وإن أثبتتها

fb/mashro3pdf

المعاجـم، وتخيّر من الكلام ما لا تدركه أفهام العوام، فيصفو قولك مـن أكدار الأحوال، ويرقى إلى عالـم المثال.

ثم قام فوق التل يذيع علينا برنامجه "قل ولا تقل". ومن فرائد قوله في هذا الباب:

ـ قل مُصَّان .. ولا تقل قصَب السكر.

قل وِكاف .. ولا تقل برذعة.

قل شجرة الخِلاف .. ولا تقل صفصافة.

قل منْجَنون .. ولا تقل ساقية.

قل حُنْبُل .. ولا تقل لوبياء.

قل زُمَّت .. ولا تقل غراب البين.

قل خِرْبِز .. ولا تقل بطيخ.

قل بَشْنين .. ولا تقل لوتس ولا عرائس النيل.

وظل يصفي اللغة حتى صفي دمها.

fb/mashro3pdf

ولا تثقل لظلّك بِمْ

وحدث في ليلة من ليالي البرد والظلمات أن طرق غريب شبّاك زوبة، وقال:

ـ غريبٌ يا أهل الدار.

وكانت زوبة قد شاخت وانقلعت أسنانها، فتعجبت من أمر الطارق، وسألت نفسها: *"من يكون يا ترى ؟!"*

ـ غريب.

ـ ماذا تريد يا غريب؟

ـ دفء بدن، وراحة قدم.

فعادت تسأله:

ـ هل معك ظِلّ؟

ـ أي ظل؟!

ـ ظلك يا رجل.

فتعجب:

ـ هه؟!

ـ هل يتبعك ظلك؟

فتحيّر الغريب من كلامها، وسأل نفسه: *"مخبولة أم تدعى الخرق؟"*. وظل فمه ينفتح وينغلق ولا يعرف بماذا يجاوبها، أما هي فألصقت أذنيها بالشباك تنتظر جوابه. وطال سكوته حتى ظنته انخرس أو انصرف، فعادت تسأل:

fb/mashro3pdf

ـ من؟

ـ غريب يا خاله.

ـ ظِلٌّ أم أصل؟

فاستفتى قلبه وجاوبها:

ـ أصل.

ـ وهل يتبعك ظلك؟

ـ لا.

ـ فأين هو؟

ـ غافلته، وهربتُ منه.

ـ صحيح؟

ـ بالحق أكلّمك يا خالة.

وسمعت نهيق حمار فسألته:

ـ من معك؟

ـ حماري.

ـ أله ظل؟

ـ فضّلني على ظله، واختار طريقي.

لـم يعرف لماذا جاوبها هكذا، لكنه أحس أنها ارتـاحت لـما قـال، فزاد في كلامه:

ـ لعنة الـلـه على كل الظلال.

اطمأنت، ففتحت بابها وباركته:

ـ ادخل، حفظتك العتـمة من ظلك.

ـ وحفظتك يا خالة.

fb/mashro3pdf

ترك حماره في ساحة الدار، ثم جلس ومدّد رجليه. أسند ظهره إلى جدار وارتاح، أما هي فارتعشت خطواتها بين فرجات الباب والشباك:

ـ هل تسمع؟

ـ هو الرعد يا خاله.

ـ نعم؛ رعد وبرق، تمرق في ومضاته الظلال والخيالات، وتدق طبول الحرب.

من فرجة الشباك رأت ظلال الأشجار والبيوت تومض وتركض، وسمعت صوت الحكيم يرعد:

ـ اهدأوا خلف الجدران، وسدّوا فروج النوّر تحفظكم العتمة.

فجاوبه الجميع من خلف الجدران:

ـ حفظتك العتمة.

نام الغريب ولم تنم زوبة، ظلت تتحسس أصابع قدميه وذيل حماره وتتشمّم أنفاسه لتتأكد أنه أصل لا ظل. ونهق الحمار فأفزعها، وقالت لنفسها: *"ما أدرا ني بفعل الظل وحيل الخيال"*.

ظلت تنتظر حتى سكن البرق، فتدثرت بشالها، وفلسعت تحت المطر بخطى عجوز مرتعشة إلى دار الحكيم:

ـ أدركني يا حكيم.

ـ ما أخرجك من عتمتك في هذا الوقت يا امرأة؟

ـ غريب اقتحم عليّ داري يا حكيم، وما أدري أظل هو أم أصل.

فطافت بخاطره فتنة المرآة، وسألها:

ـ أهي فتنة أخرى؟

fb/mashro3pdf

- لـم يعد في بدني موضع لفتنة.

- أأشعلتِ قنديلاً؟

- لا.

- فمن أدخله دارك؟

- طرق شباكي في أول الليل فتـمنّعتُ عليه، فلما زدتُ بَرقَ ورَعَـدَ، وتكاثرت الظلال على بابي فكسرته.

- ماذا يريد؟

- سرّه في جوفه.

سكت الحكيم، وقلّب الأمر في رأسه ثم قال:

- تقدميني إلى دارك يا زوبة.

فتبعها وتبعناهما فلسعة، ونحن نخشى أن يفاجئنا البرق وتداهمنـا الظلال فنهلك. وكلّمة الحكيم من خلف جدار:

- ظِلٌّ أم أصل؟

- بل ظل ابن ظل ابن ظل.

فسقطت رُكَبنُا على تراب الأرض من الخوف، أما الحكيـم فضحـك حتى صفّر حلقه، وقال:

- خدعت المرأة يا أمير الظلال.

- كنت أسعى إليك يا كبير، فما أكشف نفسي إلا لك.

- ماذا تريد؟

- لا أريد شيئا لنفسي.

- فمن يريد؟

- قومي.

fb/mashro3pdf

ـ نِعمَ القوم هم، ما طلبهم؟

ـ الذهب.

ـ الذهب؟!

ـ كل الذهب.

وشاورَنا الحكيم في الأمر على قاعدة "هات .. وخد"، فقلنا:

ـ الرأي لك.

ـ فهاتوا ذهبكم.

وفرد منديله على راحتيه، فألقت كل امرأة ذهبها، وهو لا يكف عن قول "هاتوا .. هاتوا" حتى نهتدي بصوته إلى مكانه في العتمة. ثم ضحك حتى صفّر حلقه، ونادى:

ـ أمرك مطاع يا أمير الظلال، وطلبك جاهز.

فجاوبه حمار ينهق.

ـ ما هذا يا أمير الظلال؟

ـ حمار.

ـ قبلتُ الهدية، فأخْرِجْه.

فانفتح الباب وخرج الحمار. وأمرنا الحكيم:

ـ احضروا طست نفط حتى نحتفل بتسليم الهدية لأمير الظلال، ومن لديه قطعة من حطب أو خشب ناشِف فليحضرها.

فأحضرنا ما طلب، أما هو فصرّ منديلا وناوله لزوبة:

ـ الذهب يا امرأة، ادخلي به لأمير الظلال.

ـ كأنه تراب وحصى يا حكيم!

ـ لكل معدن ظل؛ والتراب ظل الذهب.

fb/mashro3pdf

فسكتت ودخلت.

ورصّ الحكيم الخشب والحطب أمام البـاب والشـبابيك، ثـم صَـبّ النفط وأمرنا:

ـ الآن فلسعوا، حفظتكم العتـمة.

ففلسعنا، وحملت الريح صوته إلينا وهو يحيي أمير الظلال:

ـ خذ من زوبة ذهبنا، هديتنا إلى قومك. واصحب المرأة معـك فهـي هديتنا إليك ردا على هدية الحمار، واعلم أنها كانت خير مطيّة لخـير الملوك من بنى سعد.

فجاوبه صوت من داخل الدار:

ـ حفظتك العتـمة يا سيد الناس.

ـ وحفظتك النار يا أمير الظلال.

ثم أن الحكيم نطّ على الحمار، وأشعل ثقابا ورمـاه علـى الحطـب، وفلسع.

من خلف فروج الأبواب والشبابيك رأينا الظـلال تـتراكض في حفـل النار، فقلنا لبعضنا: *"كلٌ يأخذ نصيبه من ذهب نسائنا"*.

كانت ولاية الحكيم خير الأيام، لكن سرت عليه سنن الحياة فشاخ وهزل، فأخذتنا الحيرة وقلنا لأنفسنا: *"من يسـوس أمرنا إن مـات؟"*. ولما بلغه الكلام جـمعَنا حوله فـوق التـل في ليلـة مـن ليـالي الظلمـات، وأوصى:

ـ يا أبناء سعد ووعـد ورعـد وكـل مـن يسـتجد؛ ليـس كـل المجـد فلسعة، وقد طالت أيام حربكم فإني أوصيكم بعدي بالسلام، فصـالحوا ظلالكم، وعيشوا أيامكم.

fb/mashro3pdf

فسأله حصيف منا:

ـ كيف يا خير الحكماء؟

فقال:

ـ ظلك سيدك، فولّه أمرك، إن قال اقعد فاقعد، أو قال قم فقم.

وقال فيما قال:

ـ ولا تقل لظلك بم.

fb/mashro3pdf

لا يظلك إلا ظلك

فلمّا مات الحكيم عملنا بوصيته، وولّينا ظلالَنا علينا.

كانت ساعة موته ثقيلة على قلوبنا، وكنّا حوله فوق التل في ليلة من ليالي الظلمات، وأنّاته تقطر في سمعنا:

ـ أوه .. أوه.

وشياهنا تثغو:

ـ ماء .. ماء.

ـ أوه .. أوه.

ثم استجمع صوته، وكلّمنا:

ـ أتذكرون؟

فقلّبنا آذاننا في ظلمات الجهات نتسمّع صوته:

ـ ذكّرنا يا حكيم.

ـ تلك الليلة في ساحة النار.

ـ نعم؛ الغريب أمير الظلال.

ـ آه، هناك.

وعاد يئن:

ـ أوه..أوه.

ـ ماء .. ماء.

ـ إيه يا حكيم؟

ـ هناك، أوه.

fb/mashro3pdf

حيّرنا كلامه حتى فهمه حصيف منا، فشرحه لنا:

ـ احملوا حكيمكم وسيدكم إلى ساحة النار.

فتسابقنا إلى محفته نحملها على أعناقنا، وشياهنا تركض خلفنا. فما بلغنا به ساحة النار إلا وقد خمدت أنّاته، ونفدت أنفاسه.

وقال الحصيف:

ـ ليكن هنا مرقده، فعلى هذه الأرض كلّمة أميرُ الظلال، وأبرم معه عهد الذهب والنار.

ثم تلا علينا وصيته:

ـ عيشوا أيامكم، وصالحوا ظلالكم.

فلما أتم تلاوة الوصية قلنا:

ـ أوصانا ولم يعلمنا.

فقال الحصيف:

ـ اختار هذه الأرض بحكمته فلا تبرحوها حتى تُقبل ظلالكم، فإن أقبلت مدّوا أياديكم لها بالسلام.

فلبثنا وأغنامنا نقلّب وجوهنا في آفاق الظلمات، حتى سمعنا صوت البشير:

ـ كوكو .. كو.

فقست بيضة النور، ونشر ديك النهار جناحيه على العالمين، فانكشف كل شيء من عتمته وطلع من عمائة. ثم انشقت الأرض عن ظلالنا، فتحيّرنا واضطربت خطانا حتى صاح معلمنا الحصيف:

ـ اثبتوا.

ثبتنا، ورأينا ظلالَنا تلامس أقدامنا وتدير نحونا وجوها مطموسة،

fb/mashro3pdf

مددنا أيادينا بالسلام فامتدت إلينا أياديها، فهوينا من فرحة اللقاء، وتمرّغنا في تراب الأرض نعانق ظلالنا، وقال كل واحد لظله:

ـ هات بوسه.

وساحة النار اليوم هي على غير ما كانت عليه في تلك الأيام، يتصدرها الآن تمثال الحكيم في وثبته الجبارة على الحمار ليلة عهد الذهب، وقد انضغط رأس الحمار تحت مقعدته فجحظت عيناه، وبرز لسانه بين فكيه، وارتخت أذناه على قاعدة التمثال وهو من رخام أسود.

ودمج الفنان أعضاء الراكب والمطية، واختزل رجلي الحكيم في ساعدي الحمار، ونفرت كتلة الجسم من الخلف فوق حافرين، ونهض رأس الحكيم في مقدمة التمثال فوق صدر الحمار بارز الضلوع نافر العروق، في يسراه صرّة، أما يمناه فهي مرفوعة بعود ثقاب مشتعل دوما، يغذى لهبة زيت طيب تدفعه مجار خفية إلى راحة الحكيم.

وقد برع الفنان في عمله، فلم تفلت منه شعرة في ذيل أو رأس، ولا عرق نافر في بدن، ولا ثنية في ثوب.

وتمتد قاعدة التمثال على مدخل ساحة النار لتشكّل قوس الحرية، وهو بوابة عظيمة من حجر أبيض، نقشت عليها وصية الحكيم من مبتدأ قوله: *"عيشوا أيامكم"* إلى تمام كلامه: *"ولا تقل لظلك بم"*.

والعابر من تحت القوس إلى الساحة لابد أن يتذكر ابن العِجْلة أول السلاطين العظام الذين اهتموا بالعمارة وهندسة الميادين والشوارع، فهو الذي أمر ببناء القوس والتمثال، وهو من خطط الأرض على ما

fb/mashro3pdf

سيرد ذكره من جمال، ولكن السكين لم يمهله، وأكمل خلفاؤه البناء.

أما ساحة المرايا التي تبعد ألف خطوة عن ساحة النار؛ فقد سبقته بنات زوبة إلى بناء سورها حول دار دَعْد بنت رَعْد، وكان ذلك في عهد أمراء الظلال، الذين توالوا علينا منذ أن مات الحكيم، إلى أن وثب ابن العِجْلة على الأميرة ظل الفل فذبحها، وطوى صفحة أمراء الظلال، وقبض لجام الحكم بيد قوية.

وكان بين ولاية الحكيم وتولّي أول أمراء الظلال شهر، قضيناه في فرح قلب ومرح بدن، انفرد كل واحد بظلّه في مركب أو فوق خضرة، يعاتبه ويبدي له الود ويغنّي له على الأرغول:

ـ يا ضل واقف على الأبواب يندە لي
لفتح لك الباب والشباك؛ تدخل لي
وان عزّ بينا اللقا في الدار يا خلّي
لهجر بلادي وابيع في غيّتك أهلي
وامّا يميل الزمان ايه اللي يفضل لى
أتغطى بالستر.. واتسنّد على ضلّي.

وفي الكلام معان بديعة، طوعتها بنات زوبة للرقص ودقات الصنوج، فغلبت عليها الخفة:

ـ يا ضلّي يا ضلالي
الباب مفتوح ادخل لي
يا بنات ايه اللي حصل لي
وان عزّ لقانا يا غالي
اغمز بالعين وشاور لي

fb/mashro3pdf

يا بنات ايه اللي حصل لي

لأبيع داري وعيالي

وأفوت علشانك أهلي

يا بنات ايه اللي حصل لي

ولا يسترني غير مالي

ولا يسندني غير ضلّي.

كان شهرا للفرح؛ ننام على دقات الصنوج، ونصحو على نغمات الناي، وكل واحد مشبوك بظله، يجالسه ويؤانسه ويسايره ويطعمه مما تطوله يداه، ولا يشغل نفسه بغيره.

وكان من درر كلامنا من ذلك الزمان: *"لا يظلك إلا ظلك"*.

fb/mashro3pdf

ولاية الظلال

وصار كل واحد يفعل ما يريد ويأخذ ما يريد، ويقول: *"بذلك أمرني ظلي"*. فينازعه آخر على ما أخذ ويقول: *"وكذلك يأمرني ظلي"*. وبمثل هذا الكلام دبّ الخلاف بين الناس.

وكان أول الأكدار أن داس رجل بقدمه ظل آخر، فتوجّع وشتمه:

ـ يلعن ظلك.

فغضب صاحب الظل الملعون، ووثب على الآخر فضربه حتى كسر ساقه، فظل ظلّه يعرج حتى هلك.

واحتال كل واحد لتكبير ظله حتى يعظم على ظل غيره، فشاع بين الناس فرد العباءات على الأكتاف، وحمل القرون على الرؤوس، ولبس الطراطير وأطواق الريش، وحتى ظلال النساء انتفشت فيها الأرداف والصدور بحشو من القطن والريش والقش.

وكان ظلّ الثور هو الأعظم، وقبضته هي الأقوى بين كبراء الظلال، فصارعهم ظلا ظلا، ثم جمعهم في طابور طويل، وبال على ظلالهم وداسها بنعليه، وأعمل فيها سيفه، فخضع له الناجون، وبايعناه أميرا على كل الظلال.

والأمير ظلّ الثور هو أول أمراء الظلال، وهم سبعه وثبوا كلهم على الإمارة بالسيف إلا الأميرة ظلّ الفل، لكن السيف أهلك الجميع. وهو باني دار الإمارة مكان بيت زوبة في ساحة النار، وزاد خلفاؤه البناء من بعده حتى تم سبعة أدوار، وصار قصرا للسلاطين من بعدهم.

fb/mashro3pdf

وحين تولّى فرّ الحصيف بظله إلى بلاد أخرى عملا بقول الشاعر:
"أهجر بلادي وأبيع في غيّتك أهلي"، وقال لمن لاموه:
ـ لا أسخّر فعلى لغير ظلي.

ونسب الناس للحصيف بعد فراره شعرا كثيرا في ذم الزمان والخلان والأوطان.

وظلّ الثور هو أول من اتخذ القرنين شارة للحكم. وفي عهده أقامت بنات زوبة سورا حول بيت دعد بنت رعد، وأطلقن على المكان اسم ساحة المرايا، فوافقهن على ذلك، وزاد من عنده أن أمر بزخرفة جدران البيت من الداخل والخارج بكسرات المرايا، وأضاء الساحة بالقناديل، وسمح لهن بالغناء والشراب فيها، وبالتجارة في كل شيء.

وفي عهده وُلد ابن العِجْلة، وعثر عليه عابر سبيل على شاطئ النهر، وهي حكاية غريبة حارت في فهمها العقول.

أما العِجْلة فكانت لسرحان، وهو شاب قليل الكلام نحيل البدن، في وجهه جمال وفي عينيه شرود، فتن بنات الناس لكن قلبه لم يُقبل عليهن. وكان طوال يومه شاردا ينفخ في الناي، ويرعى العِجْلة على شاطئ النهر، وهي تتبختر أمامه، وفي عنقها طَوق من عشب وزهر.

ولم يكن الشاعر يقصد غيرهما حين غنى:

ـ يا ساحب العِجْلة جوّا الغيط وغاويها
شمّر هدومك لتتكعبل في رجليها
وافرش لها الأرض بالبرسيم، وغطّيها
بالفل، واملا كاسات الطل واسقيها.

fb/mashro3pdf

فغارت النساء من الكلام، ولعنَّ الشاعر الذي قال في العِجْلة ما لم يقله في أيّ واحدة منهن، وسرحان الذي يدلل البهيمة بأفعال لا تراها المرأة من زوجها.

ولما كان عيد الجلوس طلع ظلّ الثور إلى ساحة النار تسبقه دقات الطبول، فترنحت ظلال النساء من فتوة خطوته وكمال زينته. واستعرض الأمير طابور الظلال، وأمر كبير المسّاحين فقاس مساحة كلّ واحد من الكبراء، وسجّلها في دفاتر الديوان. وكان ظلّ الجمل هو الأكبر في ذلك اليوم فعينه الأمير كبيرا للحراس.

فلمّا انفضّ طابور الظلال؛ ركضنا إلى الأمير تسبقنا ظلالنا بالتهاني، واستبقنا إليه شيخ وعلى يديه طفل يصيح:

ـ واء .. واء.

ـ ما هذا يا رجل؟!

فركع الشيخ وحياه:

ـ أعز الله ظل الأمير.

ـ ما هذا؟

ـ مولود لقيته على شاطئ النهر، تحت شجرة كافور.

تأمل وجه الطفل، وتحسس نصف قلب من حجر أخضر معلّق في رقبته بخيط من حرير، وسأل نفسه: *"ابن من منهن؟"*. تفرّس وجوه النساء ولم يستطع أن يخمّن، فأطرق يداري حيرته، وخشي أن يتهم امرأة فيفسد عيد إمارته على شعبه. سكت طويلا ثم عرضه عليهن:

ـ من تكفل رضاعته؟

طال سكوتهن، ثم قالت امرأة:

fb/mashro3pdf

ـ ما فينا مرضع إلا العِجْلة.

ـ العِجْلة؟

ـ عِجلة سرحان.

وقالت أخرى:

ـ في شعره لون من شعرها.

فضحك الأمير:

ـ هو ذاك؛ ابن العِجْلة.

fb/mashro3pdf

ظلّ الفُلّ

وطال جلوس ظلّ الثور في دار الإمارة التي بناها في ساحة النار، وقبل أن يتم ستة أعوام غافلة ظل الأفعى وانسل إلي سريره بليل، فلدغه بنصل مسموم، وقال: *"فعلتها بأمر ظلي"*.

ولم يمهله ظلّ الجمل حتى يجلس، إذ دخل عليه في ساعته فبتر ذَنَبَه وقلع أنيابه، فهو أول من جلس بعد ظل الثور. أما ظل الأفعى فلا يحسب في عداد الأمراء الجالسين.

وكان ظلّ الجمل صاحب حكمة ونظر، لكنه قليل الهمّة ضعيف التدبير، فلم يمهله ظل الثعلب إلا عامين، ثم وثب عليه فذبحه وسلخه وعلّقه في ساحة النار، وجلس بعده خمسة أعوام.

وتبع الأمير ظلّ الثعلب أربعة، جلس منهم ثلاثة أمراء، كل واحد وثب وذَبح بأمر ظله وجلس عاما، ثم ذُبح بأمر ظلّ غيره. أما رابعهم فلا يحسب في عداد الأمراء الجالسين، لأنه بعد أن ذَبَح خاف من الذبح، فهرب ولم يجلس.

وكادت الإمارة تبور بعد أن زهد فيها الناس، وقال كل واحد لظله:

ـ السكين على المسن، وغيري أولى بها.

ومرّ زمن لم نكن نرى في شرفات دار الإمارة غير وجه خادم القصر العجوز يشرئب بين القناديل المطفأة، ثم ذات يوم رأيناه يشعل القناديل، وسمعنا رعشة صوت، وعزف وتر:

fb/mashro3pdf

ـ يا ويلها، ويلها هل ينطق الحجرُ

وهل يصدقها في قولها بشرُ؟

نامي على السيف يا بيضاء وانتظري

سرا تبوح به الأشجار والنهرُ.

رأينا وسمعنا، فتحصنّا بالعباءات والطراطير وأطواق الريش، وعدونا إلى دار الإمارة:

ـ من أنت؟

فظهر ظل نحيل بين أضواء الشرفة، وجاوبنا صوت امرأة:

ـ أنا أميرتكم.

ـ أميرة؛ من أمّرك علينا؟!

ـ أنتم.

ـ هه؟!

ـ عرضت الإمارة نفسها عليكم فرفضتم، أنا قبلتها.

وسألتنا:

ـ هل يريدها أحد منكم؟

سكتنا.

ـ الأبواب مفتوحة فادخلوا.

عرفناها؛ ظل امرأة فقيرة نحيلة بلا حشو من ريش أو قش، بياض في الوجه وحزن في العينين. حول العنق خيط من حرير، وفي معصم اليد عقد فل. كانت بيننا دائما تبيع عقود الفل على شاطئ النهر، لكن كأننا نراها الآن للمرة الأولى:

ـ ظلّ الفل!

fb/mashro3pdf

ـ الأميرة ظلّ الفلّ.

فركعنا نحييها:

ـ أعز الـلـه ظلك يا أميرة.

تعجّبنا لحيلة امرأة نشرت ظلها النحيـل فـوق كـبراء الظـلال، ثـم شغلتنا مسائل الفلسفة. وكان مما شغلنا أيهما أثقـل ظـلّ الفـلّ أم ظـلّ الثور، وهل العطر ظلّ أم أصل، ونسبة الولد هل تكون لأبيه أم لظلـه، وظل الأنثى هل هو أنثى أم أن كل الظلال ذكران.

fb/mashro3pdf

ابن العجلة

لم يكن ابن العِجْلة قد أتم عامه الحادي عشر حين رأى موكب الأميرة ظلّ الفلّ.

غروب، وأربع نساء يتهادين بمحفتها على شاطئ النهر، وهي ساهمة تتحسّس خيط حرير معلّق في رقبتها، وتهبط بأناملها صوب قلب مكسور. انتثر زهرٌ على طريقها، وانحنت ظلالٌ تحييها:

ـ أعز الله ظل الأميرة.

كان ابن العِجْلة فوق شجرة الكافور يتأمل الشمس والنهر، حين خطف الجمالُ الساهم بصرَه. باعد بين أغصان الشجرة ونطّ أمام الموكب، ثم شبك راحتيه أمام فمه كبوق وحياها:

ـ لتُسعد الشمسُ ظلَّ الأميرة.

فرد يديه فانبسطت العباءة على بدنه وعظُم ظلُّه، وتبختر أمام الموكب بخطوات قويه منتظمة، فاضطربت ظلال حاملات المحفة، ثم ضحكن وهمسن للأميرة:

ـ هو ابن العِجْلة يا أميرة.

ارتعشت جفون الأميرة، ثم شردت نظراتها مرة أخرى، وذابت في حلقها كلمة كانت تريد أن تقولها.

رأته بعد ذلك في ليال كثيرة شاخصا إلى شرفتها في دار الإمارة. كان ينفخ صدره بالقش ويفرد العباءة على أكتافه، ويدور حول الدار بخطى

fb/mashro3pdf

قوية منتظمة. فلما تكرر ذلك دعت كبراء الظلال إلى مجلسها وشاورتهم:

ـ ما قولكم في واحد منكم، استخف بهيبة أميرتكم، وداس ظلال دار الإمارة؟

ـ لو عرفناه لبترنا ظله.

فلمّا وصفته لهم عرفوه:

ـ يا أميرة ما هو واحد ولا نص، إنما هو صبي لا يعرف بعد كيف يمسك بوله.

ـ لو ربّاه أهله ما فعلها.

ـ ولدته العِجْلة، وربّاه سرحان.

ثم ضحكوا وانصرفوا.

وأرسلت الأميرة تطلب سرحان، فجاءها خائفا يتعثر في ظله، واتكأت هي على سرير الحكم:

ـ عليك واحد من أوزار كثيرة، فتخيّر أخفّها عليك.

أطرق ينتظر.

ـ لو ولدته العِجْلة منك، فعليك وزرُك ووزرُ البهيمة.

ـ أعز الله ظل الأميرة، ما هو إلا كلام خفّ على السنة الناس فشاع بينهم، أما الصبي فهو لقيط لقيه شيخ تحت شجرة كافور على الشاطئ، كان ذلك في العام الخامس لجلوس الأمير ظلّ الثور، وكل كبراء الظلال يعرفون ذلك.

ـ فقد اغتصبت لنفسك ما ليس حقا لها، وهذا وزر أكبر.

ـ ما اغتصبته يا أميرة، لكن الأمير دفعَه إلىّ فربيته وأرضعَته

fb/mashro3pdf

عِجْلتي.

ـ فكما أخذته من دار الإمارة، ردّه إلى دار الإمارة.

ـ الأمر لمن عدل يا أميرة، ومن سنن العدل أن الولد لمن ربّاه ولمن أرضعته.

ـ فقد أسأت تربيته.

لمح طرف الخيط فارتجف ظله، وأدرك أن كل سبل الكلام تقود إلى غاية واحدة. توسل إليها:

ـ يشفع لي أني صنت الوديعة.

تحسست الأميرة نصف قلب من حجر أخضر معلّق في رقبتها بخيط من حرير يلمع تحت طوق الفلّ، وأطرق هو صامتا ينتظر، فلما أدرك أنها انصرفت عن كلامه فهم وانصرف، أما هي فغمزت بعينها لواحد من كبراء الظلال، فتبعه حتى اختلى به، ثم وثب عليه وقصّ لسانه، وقال له:

ـ المرّة المقبلة، رقبتك.

وطلبَت ابن العِجْلة، فدخل يسبقه لسانه:

ـ السلام على أميرة يتفتح الفلّ في ظلالها، وتنام العصافير على أكمامها.

فاشرأبت من بين أطواق الفلّ:

ـ ألا تخاف يا ولد؟!

ـ عطر الجمال ملأ صدري فأسكر لساني، وهو في سكره يبوح بما تشهد العين، فلا تؤاخذيه بقوله الحق يا أميرة.

ـ فما تفعل حول داري؟

fb/mashro3pdf

ـ أحرس الجمال النائم، وأدفع عن أحلامه ظلال الهم.

ـ أشاعر أنت أم حارس؟

ـ وهل يحرس بلاط الجمال إلا شاعر.

ـ أرضعتك العِجْلة الشعر!

ـ العِجْلة وهبتني الحياة، أما الشعر فعلمنيه نصف قلب من حجر أخضر، معلّق في رقبتي بخيط من حرير.

ـ نصف قلب من حجر!

ـ نصف قلب.

انفرط كلام كثير في حلقها فابتلعته، ثم قالت:

ـ وكيف ينبع الشعر من حجر؟!

ـ إذا انكسر حجر القلب؛ رفرف طيرُ اللسان في آفاق الكلام باحثا عما فقد.

ـ فمن كسر قلبك وأنت بعد صبى؟

ـ هكذا ولدت يا أميرة الظلال.

أجلسَت الولد في حِجْرها، ومالت عليه تتأمل القلب المكسور. ثم جمعت كبراء الظلال فأثنت على كل واحد منهم باسمه، وحدثتهم عن فصاحة الصبى، وتحدتهم:

ـ لو فيكم من يقدر عليه يطلع له، فإن غلبكم جعلته كبيرا فوقكم.

فبارزوه بألسنتهم، فما كلّ لسانه حتى غلبهم واحدا بعد آخر. ونهضت الأميرة إلى ابن العِجْلة، فألبسَته القرون وأطواق الريش، وعينته كبيرا للحراس، وقالت للكبراء:

ـ غلبكم بالفصاحة والنصاحة، فهو من الآن واسطة عِقْدكم، وهو

fb/mashro3pdf

وساطتكم إليّ، فمن كانت لـه حاجـة عنـدي فليرفعهـا إليـه، ولينتظـر جوابي من لسانه.

فقال رجل خفيف الظلّ:

ـ اللسان ظل ثعبان.

وقال خفيف الظلّ لنفسه: *"لا أطلب إمارة ولا تجارة؛ فلماذا أثقـل على نفسي بالريش والقرون"*، وتخلّص من كل حشو وزينة، وسار بـين الناس بظل نحيـف خفيـف يسـامرهم ويضـاحكهم، فـإذا أثقلـوا عليـه وسألوه عن ظله قال لهم:

ـ لا يضلك إلا ظلك.

ولـم يكن خفيف الظل هو أول من هجر تكبـير الظـلال، إذا سـبقه إلى ذلك جـماعة من أهـل الزهـد، اعـتزلوا مجالسـنا، وقـالوا بنجاسـة الظل والمرأة وكل آلة ذات وتر ونبات ذي رائحة. وكان من عاداتهم أن ينهضوا جـماعة في جوف الليل، فيتطـاوحون مـن الوجْـد علـى أنغـام النايات، وهم يهزّون أكتافهم وينشدون:

ـ أنا مالي

أنا مالي

أنا مالي..

وسرّ انتشار مثل هذا الكلام أن الأميرة ظل الفل انشغلت بالتفكير في ظلّ فتنها بكلام على شاطئ النهر ثم انفلت من بـين يديهـا، وانشـغل ابن العِجْلة بظلّ الأميرة، وانشغل كـبراء الظـلال بمراقبـة ابـن العِجْلـة وهو يشب وينمو ويطاولهم بظله. فانشغل كل واحد مـن النـاس بظلـه، وتباعدوا عن دار الإمارة، وقالوا:

fb/mashro3pdf

ـ في الدار أسرار قصّوا من أجلها لسان سرحان.

وكان سرحان يطرق حين يسمع هذا الكلام، ويخفي وجهه براحتيه، فلا نعرف أيخفي ضحكه أم حزنه على الولد.

وفي تلك الأيام كثر النبش في الخرابات والحفائر، فكان أن عثرت واحدة من بنات زوبة على "نصف الرطل" المفقود منذ عهد وَعْد بن سعد، فنازعتها بنات فيه وقلن لها:

ـ كل واحدة تأخذ جراما.

فقالت لهن:

ـ ولا ملّي.

وطال تنازعهن فيه حتى فسد بين أيديهن، وفاحت رائحة نتنه في البلاد، فهبّت على مجلس الأميرة ظل الفل، وغطّت على عطر حضرتها.

وكانت الأميرة في مجلسها بين كبراء الظلال وبينهم ذهب يقتسمونه، فلما شمّت أشاحت بوجهها عنهم، وقالت لأكبرهم ظلا:

ـ إف؛ أكلت جيفة؟

ـ ليس أنا يا أميرة.

فسألت من يليه:

ـ أهو أنت؟

ـ ولا أنا.

ـ أنت؟

ـ لا.

فأوقفت قسمة المال واحتجزته عندها، وقالت:

fb/mashro3pdf

ـ في البلد ريحٌ غير ريحي، ولا أنام آمنة على إمارتي إلا إذا ظفرتم بعدوى.

فاحتاروا ولم ينطقوا، وبرز ابن العِجْلة بينهم. وقال للأميرة:

ـ أمهليني ساعة؛ أقطع ظلّ عدوك. وأحبس ريحه في قمقم.

فطاوعته الأميرة، أما الكبراء فسدّوا أنوفهم، وقالوا لبعضهم: *"ما عملها إلا هو"*.

وسمعهم فانكسف وجهه، وهام في الشوارع حتى أرشده نجم سعده إلى المخبوء عند بنات زوبة، فدفنه في ساحة المرايا، وصبّ عليه الرصاص، ثم أمر ببناء قبّة فوقه.

وأقرته الأميرة على ما فعل، وزادت أن خصصت مكيالا من الذهب لطلاء القبة، وقالت للكبراء:

ـ من حضر القسمة فليقتسم، ورائحته حضرت مجلسنا.

ولا تزال قبة نصف الرطل ساطعة بزخرفها وذهبها بين المرايا على يمين الداخل إلى الساحة، وأمامها صبيان يبيعون العطور والزهور وقراطيس البخت.

ومن الأسماء التي شاعت في تلك الفترة "النص"، ومن كانت تخاف على ابنها من الحسد تسمية "النص نص".

والنص من كلام العوام وصحته "النصف"، لكن العامة نزعوا فاء الإنصاف لمّا استحال العدل في القسمة.

ومن عجائب ذلك الزمان أن ظهر بين الناس رجل بلسان مشقوق نصفين، فكان يقول كلاما بنصف لسان، ويقول عكسه بالنصف الآخر.

ومما شاع في تهْشيك البنات والصبيان:

fb/mashro3pdf

ـ حلاوتي نُصْ نُصْ
ولساني نُصْ ونُصْ
نص يقول الكلام
والنص التانى يقص
يا لساني يا مقص
قص.. وعلّمني الرقص.

fb/mashro3pdf

النص نصْ

وكبر ظلّ ابن العِجْلة في عين الأميرة، ففوضته في أمور كثيرة. وفي عهدها مهّد الطريق بين الساحتين؛ ساحة النار وساحة المرايا، ونوّر الشوارع والحارات بالفوانيس والقناديل، وعيّن على كل حارة كبيرا منها يصّرف أمورها، وشجع الناس على خلع الأطواق وتخفيف الظلال، وقال لهم:

ـ لا تثقلوا على أنفسكم.

فكبر في عينهم كما كبر في عين الأميرة.

وقام النُصْ نُصْ يخطب في الناس، وقال بنصف لسان:

ـ الأمر لظل الفل؛ بمشيئتها فعل، ولأمرها أمتثل، فهي نبع الفضل.

فهتفوا:

ـ أعزَّ الله ظل الأميرة.

وخطب بالنصف الآخر من لسانه فقال:

ـ والفعل حقيقة القول، وجوهر الفضل، فما أكثر من قالوا، وما أقل من فعلوا.

ـ أعزَّ الله ظل من فعل.

وكان ابن العِجْلة كلما كبر واسوَدَّ شاربُه ثقل حجر قلبه، فيخرج إلى الخلاء، ويجلس تحت شجرة الكافور، ويقلّب نصف القلب المعلق في رقبته بخيط من حرير، ويقول:

fb/mashro3pdf

ـ يا قلبي يا حجر؛ لو كان لك لسان اكشف السر، ودلّني على الأثر. ويا شجرة بين الشجر، لا غيرك رأي ولا غيرك نظر، ولا غيري يصبر على المُرّ.

وسمعه النص نص وهو يتنهد في خلوته، فسأله:

ـ يا زينة الكبار؛ لماذا الحزن في الصغر؟

ـ قدر.

ـ الفرح لمن يقدر عليه.

ـ إيه.

ـ لكل أمر صعب حيلة تداويه، والإنسان يبحث عن الشيء وهو أمام عينيه وبين يديه.

ـ ما أبحث عنه بعيد.

ـ المفتاح موجود، وليس ببعيد على من يريد.

ـ أين ؟

ـ هذا أمر يصعب شرحه بهذا النصف من لساني.

ـ فكلّمني بالنصف الثاني.

ترقّب حتى أنتظم كلامه، ونطق بالنصف الآخر من لسانه:

ـ مفتاح أمرك في رقبة الأميرة.

ـ زدتني حيرة.

fb/mashro3pdf

ـ هو شيء يخصك، لو تمدّ يدك يصبح لك، الأمر أمرك، والفعل فعلك.

ففكّر في الكلام على قدر فهمه، ثم صعد إلى الأميرة وفي يده سكين، وهي جالسة بين أطواق الفل وفوقها قنديل، فلمّا رأت سواد عينيه فهمت وأطرقت:

ـ أنتَ!

ـ فات أوان الكلام.

ـ صبي وغبي.

فلما ذبحها انقطع خيطها وتدحرج نصف القلب المعلق في رقبتها، فرمى السكين، وأمسك نصف قلبها بيد ونصف قلبه بالأخرى، وصاح:

ـ أنتِ!

وجلس ابن العِجْلة للحكم وهو ابن عشرين سنة، وكان محبوبا من العامة، وله عندهم ألقاب كثيرة.

ومن ألقابه " الغلباوى" لأنه غلب الكبراء بفصاحته وهو صبي، و"الجالس على الحِجْر" يقصدون حِجْر الأميرة، و"الكافوري" لكثرة جلوسه فوق وتحت شجرة الكافور التي أورثته العنّة.

ومن ألقابه "أبو ريحَه" إشارة إلى حكايته يوم الرائحة وقول الكبراء لبعضهم: *"ما عملها إلا هو"*.

وأعظم ألقابه "أبو سراب" وفيه أقوال؛ أولها انه إشارة إلى شراب السراب الذي ابتدعه علاجا لأوجاع قلبه، وثانيها أنه إشارة إلى عنته

fb/mashro3pdf

وانعدام خلفه وبنائه الملك لغير نسله وهو معنى بعيد، أما الأقرب فهو نسبة اللقب إلى كلام قاله للأميرة، إذ سألته يوما:

ـ ما الفصاحة؟

فقال:

ـ الفصاحة في لغتنا مثل سير البدوي في الصحراء، يمشي ساعة ليبلغ حجرا، وقد يسير يوما بطوله قاصدا سرابا.

fb/mashro3pdf

أبو سراب

فقد ابنُ العِجْلة فرحَه في يوم جلوسه، وثقل حجر قلبه حتى كاد خيط الحرير يجز عنقه، لكنه أخفي أمر حزنه عن غيره، لكي لا يفقد زمام أمره.

ونهض للحكم بيد قادرة: فأعلن نفسه سلطانا على الجميع، وكسر قرون من عصى من كبراء الظلال، وقسَّم على من أطاع منهم إمارات النفوس والحبوس والفلوس.

واحتفظ السلطان لنفسه بإمرة الجيش والدرك، وجعل على كل منهما رئيسا يأتمر بأمره في كل صغيرة وكبيرة. وأمر رئيس الدرك بالحراسة، ومنع السهر والتلاعن بالظلال والتناطح بالظلال، فنشط العساكر في الشوارع ليلا يصفرون وينفذون الأوامر. وأطاع الناس إلا بنات زوبة، فقلن للعساكر:

ـ هذا وعد علينا منذ عهد أبينا وعد في أول الزمان، نقوم الليل وننام النهار، وما يقدر الكافوري على تبديل الطبائع.

وقصدهم بالكافوري السلطان على ما سلف من معنى عند شرح ألقابه.

وكن يتحايلن لإلهاء العساكر؛ فإذا ظهر واحد منهم في ساحة المرايا، قامت إليه واحدة من بنات زوبة، تسحبه من يده وتغني له:

fb/mashro3pdf

ـ العسكري يشاور لي

ويمشي على مهلي

أبعد نص ملّى

يقرّب منى ملّى

ويوشوشني في ضلّي.

ثم تراوغه وتهرب منه، وتبرز له غيرها فتصب وتسقيه، وتغني:

ـ ضلّي وانتو مالكو

هوّا كان بتاعكو

ومين اشتكى لكو

روحوا شوفوا حالكو

وسيبوا لي ضلّي.

ثم تسحبه ثالثة بيد وتدق الصنوج بالأخرى، وترقص له:

ـ يا ضلّي يا واقف

ع الحيطة وخايف

قرّب من الشفايف

حضن الحيطة ناشف

وأنا حضني تلي.

فيدوخ العسكري ويترنح من يد لأخرى، وينبسط قلبه ويضحك: *"هأ..هأ"*.

ولما فسد أمر الدرك، جمع السلطان أمراءه وشاورهم في أمر بنات زوبة، فقال أمير النفوس:

fb/mashro3pdf

ـ أطردُهن.

وقال أمير الحبوس:

ـ أستضيفُهن.

وقال أمير الفلوس:

ـ بل اتركوهن فأزيدُ عليهن المكوس.

ولم يعجب الكلام السلطان، فنطح راحته وصاح:

ـ اتركوا أمرهن لي.

ونهض إليهن بقلب من حجر، وسار إلى ساحة المرايا بعساكر لا يعرفون الأنثى من الذكر، فقيدهن بسلاسل الحديد، وعلّقهن من شعورهن بين السماء والماء، ولمّا كثر نواحهن قطع السلسلة، وهبت ريح فطوحتهن في النهر، فهن في هم وترحال إلى اليوم.

ولما استقر سلطانه أبطل تكبير الظلال، ومنع لبس القرون وأطواق الريش إلا في الأعياد، فتضاءل أمامه كل الكبراء.

وكنا إذا جاء عيد جلوس السلطان نلبس وأولادنا ما نريد من أطواق وقرون، ونخرج إلى الشوارع نلهو، فنتراقص ونتناطح بالظلال، وتمرح ظلال الأولاد خلف ظلال البنات توشوشها وتلاعبها.

وكان منّا أصحاب فن برعوا في تصوير خيالات الظل؛ يفردون شاشات القماش في ساحة المرايا، ويمثلون خلفها مشاهد من تاريخنا مع بعض تصرف لزيادة الإمتاع.

كنّا ندفع الأجرة، ونتسلى بمشاهدة ظلال ملوكنا الأوائل من آل سعد؛ نحلم مع وعد، ونفلسع مع رعد، ونبكي على ما جرى لدعد. فإذا برز ظل الحكيم على الشاشة. في يده صرة الذهب وفي الأخرى

fb/mashro3pdf

عود الثقاب، نهلل:

ـ هذا هو الحكيم.

فيجاوبنا صوته من خلف القماش:

ـ لا؛ بل العكَيم.

فنضحك.

وفي صحيح اللغة "عَكَم الدّابة" أي شد فاها بالعِكَام، وهو ما يُشَدّ به من حبل أو خيط وجمعه عُكُم. ويكون عَكْم العامة على مثال الدواب، أما عكم الأكابر فلا يكون إلا بسلاسل الذهب. ولا تكتمل حكمة الحكيم إلا بعكم الصنفين.

ولا تخفي على لبيب الصلة بين الحكمة والحُكْم، فالحكمة مؤنث والحكم ذكرها، والعَكْم مشترك بينهما. فإذا كان شرط الحكمة عكم الصنفين كل صنف بما يناسبه، فإن الحكم لا يكتمل إلا بعكم الصنفين بالصنفين.

ولم يغب هذا الأمر عن سلطاننا ابن العِجْلة، فعكمنا بحبله وفضله، وذهبه وغضبه. كان ينزل إلى الساحات يوم العيد بين أمرائه، يخطرون على بغال معكومة بسلاسل الذهب، وأمامهم طبلة وزمارة وخادم يرش حبات من الذهب، فنسارع إليها نلتقطها من بين حوافر الدواب، ونخشع هاتفين:

ـ أعزك الله بذهبك، وأيّدك بجندك.

ونزول السلطان هو زينة العيد، يحرس فرحنا برضاه، ويزيد بهجتنا بعطاياه. لكننا نراه في طوافه فوق الدابة شارد النظر، يقلّب بصره في الآفاق، ثم يطرق متحسسا موضع قلبه. وهو بين إطراقه

fb/mashro3pdf

وأخرى يرفع رأسه ويقول لأمرائه: *"ابنوا كذا هنا، وابنوا كذا هناك"*.

ومما أمر ببنائه تمثال الحكيم وقوس الحرية فوق قبر الحكيم على مدخل ساحة النار، كما بنى حول الساحة سورا ذا أبراج عالية يتناوب فيها الجنود حراسة قصر السلطان ودواوين الأمراء ومنازلهم.

وأقام السلطانُ "سبيلَ العِجْلة" على الطريق المرصوف بين الساحتين، وهو فوق نبعٍ ترفع ماءه ساقيةٌ دوّارة، وتصبّه في ظهر عِجْلة مجوّفة من حجر، فينبثق الماء من ضروعها ليشرب منه الغرباء وعابرو السبيل.

أما في ساحة المرايا فبنى ضريحا رمزيا لآل سعد، يحيط سوره بقبة "نصف الرطل"، فأسماه العامة"بيت الثلاثة ونصف"، وإن خصّوا صاحب القبة المذهبة باسم "أبو البنات"، وفيه إشارة إلى ما جرى في أول الزمان بين وعد صاحب نصف الرطل وزوبة أم البنات.

ولا يملّ السلطان من الطواف بكل هذه المعالم، وأحب الطواف إلى قلبه في العيد وفي غيره هو طواف السحر. يخرج إليه بعد أن تخلو الساحات وفي وقت لا يعلمه إلا هو. يطلع من تحت قوس الحرية وحيدا مترجلا بلا حارس ولا صاحب، فيتمهّل في سيره على الطريق المرصوف بين الساحتين، فيغتسل ويشرب من سبيل العِجْلة. ثم يدخل ساحة المرايا فيمر ببيت الثلاثة ونصف، ويزور بيت المرايا.

وطاف السلطان ذات سحر.

كانت ريح خفيفة تطيّر عباءته وهو يتطوح صوب ساحة المرايا. صمدت قناديل قليلة للريح فبرقت المرايا عن بعد بضوء احمر متقلب، ورفّت أخلاط غناء في الساحة. فتشبّث السلطان بأطراف العباءة،

fb/mashro3pdf

وقلّب أذنيه في الجهات مُتسمّعا:

ـ وهودجٌ في سحرٍ ناعس

على كِرام النوق محمولُ

ترنّ في البيد خلاخيلُها

وينظم الخطوات أرْغولُ

حمّالة الأشواق يحدو بها

ظنٌ وبعض الظن مأمولُ

تسابق الليلَ إلى صبحها

وقلبها بالنور مشغولُ

تبغي سراب العشق يا ويلها

من بيدها والليل موصولُ.

أسرع إلى بيت المرايا، دخل وأغلق حارس البيت الباب خلفه.

تقلّب سواد عباءته في كسرات المرايا التي تغطي سقف البيت وجدرانه، وبرقت عيون كثيرة. تأمّل الهشيم البارق في المرايا؛ عيون وشفاه وآذان وأطراف أصابع وخصلات شعر. انخطف بصره فتشبث بالقلب المكسور المعلق في رقبته بخيط من حرير، وتوجع من حز الخيط:

ـ آه.

فجاوبته أخلاط صوت، ووجه يتكسّر في المرايا:

ـ تبغي سراب العشق يا ويلها

من بيدها، والليل موصول.

وظل السلطان يتوجّع في عودته على طريق النهر الموازي للطريق

fb/mashro3pdf

المرصوف. تمهّل عند شجرة الكافور، ثم توقف ليقرأ الفاتحة أمام بيت الإنتظار، وهو ضريح أقامه لنفسه قرب الشجرة، وكتب على لوحة ألقابه "أبو سراب"، وقال لأمرائه: *"أكملوها بعدي بما ترون من ألقاب"*.

وسمع صوتا يناديه من تحت شجرة الكافور:

ـ سلامتك من الآه يا سلطان.

ـ من أنت؟

ـ النُصّ نُصّ.

ـ أنت؟!

وقال السلطان ابن العِجْلة:

ـ أتذكر يا نص نص يوما قلت لي فيه أن المفتاح في رقبة الأميرة؟

ـ نسيت.

ـ لا؛ بل قلت.

ـ وأنت فهمت، وما فهمت.

وعاد يتوجّع من ثقل الحجر وتقلّب المرايا:

ـ آه.

وفي ذلك السحر كلم النص نص السلطانَ بنصف لسان:

ـ المرايا صور الخلق.

وقال بالنصف الآخر من لسانه:

ـ والخلق مرايا الحق.

وقال:

ـ لا يشفيك من الآه يا سلطان إلا دوام النظر في وجوه الناس، فهم

fb/mashro3pdf

نَفَسٌ وإحساس.

- زدني.

- لو الكلام يفيدك أزيدك.

وقال السلطان للنص نص في ذلك السحر:

- أريدك إلى جواري.

- إمارة؟

- بل وزارة.

ثم ضاحكه وقال:

- اخترت لك الأحسن، ولو عرفت ما في كلمة وزير من خير ما رضيت إلا بها.

- فهمني؟

- لو قلّبت حروفَها لاستخرجت منها الكثير، فمنها الزير وماؤه في حلق السلطان أبرد من ماء السبيل، ومنها الرُزّ والوزّ وهما طعام الأكابر، ومنها الوَزّ أي الهمس في الآذان بعيوب الناس وهو تسلية السلاطين وأنس مجالسهم، ومنها الوِزْر فالوزراء حملة أوزار السلاطين أمام الناس ولهم ثوابهم. أما كلمة أمير فمهما قلّبتها لا يطلع منها في يدك إلا شئ لا ترضاه لنفسك.

وكلّمه جادا فقال:

- الإمارة أمرٌ بلسان مر، والوزارة مشورة، يلزمها رجل مثلك بلسانين، يقلّب الأمر على الوجهين.

وشكر الوزيرُ السلطان، وقال بنصف لسان:

- نعم الاختيار.

fb/mashro3pdf

ـ من يدري يا وزير، ربما تختار لي أنت أيضا في يوم من الأيام.

ـ الأيام فيها الكثير.

وأكمل بالنصف الآخر من لسانه:

ـ يومها سأرد الجميل، وأختار لك أحسن الاختيار.

وانشغل النص نص بأحوال الناس، فقال للسلطان بنصف لسان:

ـ أرضك تحت أرجلهم، ولو وزّعتها عليهم ترضيهم، ويكون ذلك عدلا منك وحماية لك.

ـ يشغلك أمر الناس؟

ـ ويزيد همي.

وحَسُن الكلام في سمع السلطان فوافقه:

ـ وزّعها.

فبسط الخرائط أمامه ليقسم الأرض، وقال للسلطان بالنصف الآخر من لسانه:

ـ وأمرك أيضا يشغلني.

ـ في أي شيء؟

ـ تقسيم الأرض.

ـ كيف؟

ـ أقسمها بالطول أم بالعرض؟

ـ ما الفرق؟

ـ إذا قسمتها بالطول ساويت بينهم، وصارت أراضيهم مثل السهام المصوبة إليك، وتجرأت خطاهم عليك.

ـ وإن قسمتها بالعرض؟

fb/mashro3pdf

ـ يصبح بعضهم فوق بعض، فينشغل البعيد بمن يجلس على رأسه وينافسه في الاقتراب منك، أما القريب فيظل محتاجا إليك ليحمي ظهره بقوتك.

وتوجّع السلطان أمامه مرة، وقال:

ـ أنا كثير المال عديم العيال، حولي منازل وطوب وما حولي رجال.

فسحب النص نص الخيطَ من فم السلطان. وقال:

ـ أنا أصنع لك الرجال.

وتوكّل النص بالتعليم، فبنى المدارس. وأنشأ معهدين للدراسات العليا، الأول يعطي شهادة "أقول آه" والآخر شهادة "أقول لا". وتحيّر الناس في أي الشهادتين أحسن، فقال خفيف الظل:

ـ بهذه تشتغل وتكسب، وبهذه تشتغل وتكسب، المهم النباهة.

لكن الناس ظلّوا يفضلون شهادة "أقول آه"، وقالوا:

ـ شغلها مضمون، ورزقها أوسع، ومعناها أعمق ففيها مع القبول توجع.

fb/mashro3pdf

الأَحْجَار أَسْرار

تحيط دواوين الأمـراء بقصـر السـلطنة في سـاحة النـار شمـالا، أمّـا بيوتهم وبساتينهم فتتوزع على ضفة النهر بين الساحتين. وتتناثر بيوت العامـة ودكـاكين أصحـاب الحـرف غـرب الطريـق المرصـوف المـوازى للشاطئ، وتـمتد الحقول وأفران الفخار جنوبا خلف ساحة المرايا.

من النهر يـأتي التجـار في قـوارب صغـيرة، يطوفـون حـول بيـوت الأمراء والوجهاء يعرضون بضاعتهم، ثـم يذهبـون إلى السـوق في سـاحة المرايا، فيبيعون، ويشترون شيئا مما يعرضه الناس.

ومما شاع بيعه في هذا الوقت تـماثيل صغيرة من فخار أحمر تحاكى تـمثال الحكيم وسبيل العِجْلة، وكسرات صغيرة من المرايا يقول بائعوها أنها من مرآة دعد بنت وعد التي فَجَر بهـا خيالهـا في الزمـن القديـم. وكانوا يتفننون في تنغيم نداءاتهم:

ـ مرآة دعد تجلب السعد.

ـ المرآة يا صبية، أحسن من الوحدة في العشية.

وجلس صبيان في السوق يبيعون البخت للناس، وينادون:

ـ الذهب بسعر التراب.

وبضـاعتهم أكيـاس وقـراطيس يملأهـا البـائع ترابـاً، ويشتريهـا الباحث عن الحظ على أمل أن يجد في ترابها قطعة من ذهـب، فـإذا

fb/mashro3pdf

لم يجد إلا الحصى قال له البائع:

ـ هذا هو ظل الذهب الذي تحدّث عنه الحكيم في زمانه.

وطاف رجل ذات صباح ينادى:

ـ الأحجار أسرار.

سمع السلطان فتحسس القلب المكسور، وقال للنص نص:

ـ ناد الرجل.

فلوّح خادم القصر العجوز براية النداء من شرفات القصر، وطلع الرجل السلالم الدوّارة بتعب، ودخل الديوان مع غروب الشمس وهو يلهث.

ـ ما بضاعتك؟

ـ أعز الله السلطان، أنا رجل يبيع جواهر الأحجار والكلام.

وبسط منديلا وعرض بضاعته، فتفحصها السلطان وقال:

ـ لا أريد شيئا من جواهر أحجارك، لكني أسألك عن حجر لا أجد مثله في منديلك.

ـ صفه لى يا مولاي.

فخلع الخيطين، وعرض عليه الحجر المكسور نصفين، فقال الرجل:

ـ هذا حجر الزمرّد، ويسميه الناس حجر القلوب لأنه يكون في الغالب على هذا الشكل.

ـ فلماذا لا أجده بين أحجارك؟

ـ حملُه خسارة للتاجر، فهو من أغلي الأحجار لكنه أسهلها في الكسر، وإذا انكسر لا علاج له، لان حواف الكسر تتهشم فيصعب

fb/mashro3pdf

على الصانع إعادته إلى شكله.

ـ فما أسراره؟

ـ اعلم يا سلطان الزمان أن مبتدأ هذا الحجر يكون مثل مبتدأ الياقوت الأحمر، لكن آفات الزمن تقصُر به عن الكمال، فيسْوَدّ من الهم، ويزْرَقّ من الغم ثم يخْضَرُّ بالسماح، فيتم له جمال اللون وإن ظل به نقص في الجوهر.

ـ زِدْني.

ـ اعلم يا مولاي أن هذا الحجر الأخضر خفيف كما ظل الشجر، يدفع الهموم، ويطرد ذوات السموم. ويقال أنه إذا نظرت إليه أفعى فقأ عينها وسلبها البصر.

ـ زدني.

ـ واعلم أنه إذا انكسر؛ يثقل على قلب حامله ويورثه الضجر، فيجره إلي مسالك الخطر.

ـ فما يغرى الناس بشرائه؟!

ـ الآن أنا لا أبيعه ولا أشتريه، لكنني بعت واحدا منه زمان لأول أمراء الظلال.

ـ ظل الثور؟!

ـ اعلم يا مولاي أن الأمير رحمه الله كان ظل ثور في دار الأمارة، أما في الليل فكان ظل غزال صياد يطارد العذارى على شاطئ النهر. وفي ليلة من ليالي الطراد ضاع منه الحجر، خسارة؛ بعدها ضاعت الإمارة.

ـ أهو ظل الثور؟!

fb/mashro3pdf

ـ وقد يكون الحجر نفس الحجر.

فأطرق السلطان قليلا، ثم سأله:

ـ فما علاجه إذا انكسر؟

ـ اعلم يا مولاي أنه إذا انكسر حجر القلب فلا شفاء له، لكنني أعرف شرابا يُنسى صاحبه خسارته ويخفف أوجاعه.

ـ ما هو؟

ـ شراب السراب.

ـ هه؟!

ـ شراب السَّرَاب؛ والسراب يا مولاي ضرب من اللؤلؤ قصرت به الآفات عن الكمال، ففي الحبة منه نفخ يباعد بين قشرة اللؤلؤة وجسمها، وكلما مر الوقت يبست القشرة وتشققت. فإذا نُقعت في ماء الطَلّ التأمت، ويكون ماؤها رحمة لذي القلب المكسور. فإذا شربه نسى خسارته وخفت أوجاعه.

ـ وكيف السبيل إليه؟

ـ هو على عيبه نادر بين اللآلئ، ولا يعرف سرّه إلا عجائز الغواصين والتجار، لكنني أملك حبّة منه لا يقدر على سعرها إلا السلطان.

ـ حبة واحدة؟

ـ كما قلت لك يا مولاى؛ هو على عيبه نادر، وواحدة منه تكفيك، وماؤها يرويك.

فاشتراها منه السلطان بذهب كثير، وقال للنص نص:

ـ لا تدع قطرة طل دون أن تجمعها، انقعها يا نص نص، واسقني

fb/mashro3pdf

شراب السراب في الصباح والمساء.

وفي الليالي التالية كان السلطان يترنح على أريكة الحكم، ويقول للنص نص:

ـ هاتها يا صاحبي.

ـ أسرفت على نفسك يا مولاي.

ـ لو قاسيت وجع القلب ما بخلت علي بشراب السراب، ولا منعت عني قطرة منه.

وأمره ذات ليلة أن يبني ضريحا للأمير ظل الثور وان يكتب على لوحة ألقابه: صاحب الظلين، الصياد، أبو العيال. وأمره أن يبني ضريحا آخر للأميرة ظل الفل، وان يكتب على لوحة ألقابها: صاحبة الخيطين، الغزالة، أم السر. فلما تم البناء أضاف عابر سبيل إلى ألقابها "العجلة".

ولما كثر جلوسه للشراب ثقل لسانه وصار يتكلم بالألغاز، فكان يطرق طويلا ثم يرفع رأسه ويسأل النص نص:

ـ خبّرني يا خلي؛ أأنا الناطق أم ظلي.

fb/mashro3pdf

طواف السحر الأكبر

لم ينزل السلطان لطوافه المعهود يوم العيد، وقال لأمرائه:

ـ فيكم البركة؛ فانزلوا للناس وافرحوا معهم.

ـ لا يكون فرح إلا بنزول السلطان.

ـ فرحُ السلطان بأمرائه وشعبه، فأسْمعوني أصوات فرحكم لعلها تذهب وحشتي.

فلما انصرفوا قال النص نص بنصف لسان:

ـ أمراؤك يحبونك أكثر مما يحبون أنفسهم، ولا يطمعون في شيء تملكه يدك، بمثلهم فليهنأ السلاطين.

وقال بالنصف الآخر من لسانه:

ـ لكن قعود السلطان في يوم مثل هذا يشتت قلوب الأمراء؛ يغري كل واحد بالآخر، ويزرع في قلبه الخوف منه.

وِدقت طبول الأمراء للخروج للعيد، فاطرق النص نص يتذكر يوما اختار له السلطان فيه الوزارة، وقال:

ـ أتتذكر ذلك اليوم يا مولاي؟

ـ أذكره؛ يومها قلت انه قد يأتي يوم تختار لي فيه كما اخترت لك.

ـ لا أتمناها لنفسي يا سيدي.

وقال النص نص لنفسه: *"الريح غلابة"*، ثم أطرق يداري وجهه،

fb/mashro3pdf

ويمسح دمعة علقت برموشه.

جلسا في أول الليل في الديوان، كان السلطان متكئا على أريكة الحكم في ثوب وشال من قماش خفيف، والنص نص أمامه يصب ويسقيه شراب السراب، ودفق من نسيم خريفي يهبُّ من شرفات القصر وشبابيكه؛ فيطيّر أطراف شال السلطان، ويهز نور القنديل فتتأرجح الظلال. ومع النسيم تهب أصداء فرح وهتافات بعيده، لكل أمير هتاف باسمه.

ثقل الحجر فطاوع عنقُ السلطان الخيطَ المشدود، ومال رأسه إلى الأمام، كان فمه مليئا بالألغاز والآهات. ومن ألغازه وأسئلته في تلك الليلة:

- الواحد كسر أم تام؟
- تمام التمام.
- والاثنان والثلاثة؛ زيادة أم نقصان؟

وسأله؟

- ما قولك في شجر لا ظل له ولا ثمر؟
- هو خشب وسط الزرع، وقطعة حلال.
- يقطع نفسه بنفسه، أم يترك أمره لغيره؟
- إن كان زرع نفسه يقلعها.
- وحين يقلعه زارعه ما يكون مصيره؟
- حطب للنار، أو خشب للنجار.
- فخبّرني يا نص نص اللوم على الزارع أم على المزروع؟!

وسأله:

fb/mashro3pdf

ـ أيهما الأبعد، ما لا تطوله اليد أم ما لا تراه العين؟

وسأله:

ـ ما هو الطريق؛ خطوتك أم مكان رجلك؟

وسأله:

ـ دقة القلب؛ حركة أم سكون؟

كان يطرق بين كل لغز وآخر حتى يظنه النص نص قد غفا. فلما كان وقت السحر نزل السلطان للطواف، فنزل النص نص معه يسنده وينوّر طريقه بقنديل، وقال له:

ـ الليلة؛ لا أتركك وحدك يا سيدي.

كان نسيم الخريف قد انقلب ريحا أطفأت القناديل إلا قليلا منها، فقال السلطان لنفسه: *"الريح غلابة"*.

وخرجا من تحت قوس الحرية، عليهما فراء خراف بيض، والريح تطوّح أطراف ثيابهما وتنفذ إلى جلد السلطان بلمسة باردة.

تمهل عند القوس؛ ألقى نظرة على تمثال الحكيم؛ وعلى ضوء القنديل قرأ الوصية المنقوشة على الحجر حتى أتم قوله *"ولا تقل لظلك بم"*، فكررها ثلاثا، ثم أطرق.

وتوقف قليلا عند سبيل العِجْلة، فشرب من الضروع النافرة حتى ارتوى. ثم ملأ راحتيه وسقى النص نص، فبينما يسقيه إذ سمع ضحكا متقطعا يعلو وينخفض في الريح:

ـ سامع؟

ـ كأنه بكاء متقطع يعلو وينخفض في الريح.

ـ بل هو ضحك يا نص نص.

fb/mashro3pdf

ـ ربما هي أصداء أصوات بنات زوبة يتخبطن في باطن النهر، فمنهن من تضحك ومنهن من تبكي.

ـ لا يا نص، هو ضحك خالص.

ـ إن كان ضحكا فهو لك، وإن كان بكاء فهو علي.

وسارا صوب ساحة المرايا، وفي كل أذن صوت غير الأخرى.

وفي الساحة طافا بضريح الثلاثة ونصف، ثم أسرع السلطان إلى بيت المرايا، وطلع السلم والنص نص يسنده وينور طريقه بالقنديل، فسأله:

ـ السلم طلوع أم نزول؟

ـ هو على اتجاه الوجه يا سيدي.

ـ قصدي الطلوع لكن كأني نازل.

قناديل في الأركان، يتقلب نورها في كسرات المرايا التي تغطي القبة والجدران. رأى السلطان عين النص نص تطل عليه من كل المرايا، فسبقه بخطوتين ليتصدر المشهد، لكن تفاصيل وجه النص نص ظلت حاضرة تتقلب في كل المرايا. حرك السلطان يديه ورأسه، لكنه لم ير غير عين النص نص تبرق في المرايا.

التفت إليه فرأى عينيه شاخصتين وشفتيه منطبقتين كأنه لم ينطق أبدا، صاح:

ـ أين أنا؟

ـ ..

ـ أنتَ من؟

فجاوبته رعشة وتر وغناء بصوت النص نص:

ـ حمالة الأشواق يحدو بها

fb/mashro3pdf

ظن وبعض الظن مأمول

تسابق الليل إلى صبحها

وقلبها بالنور مشغول

تبغي سراب العشق يا ويلها

من بيدها، والليل موصول.

رفرف النص نص، وبرقت عيناه، وتقلبت صوره في المرايا.

ـ أنتَ يا نص نصَ؟!

ثم سكت الصوت، فسكن النص نص، وأمسك نصفي القلب المعلقين في رقبة السلطان كل نصف في يد، وجذبهما حتى توجّع من حز الخيط، وقال له:

ـ أنت أيضا نص ونص.

ولم ينظر السلطان بعدها إلى وجهه.

عادا إلى القصر، فصعد السلطان والنص نص يسنده علي السلم وينوّر طريقه بالقنديل حتى أجلسه على الأريكة، وسأله:

ـ لماذا لا تنظر إلى وجهي يا سيدي؟

ـ الكلام انتهى، هات من الآخر.

فالبسه النص نص زينته وشاراته، وقبلة بين عينيه علامة على الفراق، ثم ضمه إلى حضنه بيد وذبحه بالأخرى، وطلع على الأمراء برأسه وهو يبكي، فصرخوا في وجهه:

ـ غدرت، وتبكي يا وزير!

فطأطأ رأسه لسيوفهم وقال:

ـ بهذا يتم الدور يا أمراء.

fb/mashro3pdf

فوثبوا عليه وذبحوه، وطاف العامة برأسه في الشوارع، ثم علقوه على وتد أمام سبيل العِجْلة، والمنادي يصيح أمامه:

ـ هذا جزاء من خان.

ولما مرت جنازة السلطان أمام الوتد ثقل النعش على أكتاف الأمراء فتمهلوا، وقال الأمير العقرب:

ـ سمعت الرأس يقول للسلطان: *"يا بختك"*، فيجاوبه صوت باك من داخل الصندوق: *"يا حبة عيني؛ سهلت علي واخترت الأصعب لنفسك"*.

وفي هذه النجوى لطائف وأسرار تحار فيها العقول.

fb/mashro3pdf

عمود المنادي

وظل الرأس على الوتد حتى أنتن وحامت حوله الحدآت، والأمراء مشغولون عن ذلك بالجدال في دار السلطنة حول من يجلس علي الكرسي، فضجر الناس من الرائحة وصاروا يصيحون:

ـ احضرنا يا سلطان.

يقصدون ابن العِجْلة الملقب بأبي ريحه.

أما الرجل الذي ينادي أمام الرأس: *"هذا جزاء من خان"* فصار صوته يخفت كلما زادت الرائحة، ثم قام إلي الرأس فدفنه في مكانه ووضع فوقه عرقاً من رخام، فارتاح الناس من الرائحة وقالوا:

ـ السلطان حضرنا.

وأوقدوا شموع الشكر علي شبابيك بيت الانتظار، وهو الاسم الذي أطلقه ابن العِجْلة علي ضريح بناه لنفسه في حياته، ولم يبدله الناس بعد موته.

وظل المنادي إلي جوار الصخرة يتسول الصدقات، فكان يمد يده في صمت للعابرين، وقد اختلط شعر رأسه بلحيته وشابت رموشه. وهو في جلسته يبتسم ويعبس ويهز رأسه ويتنهد كأنه يستمع إلي كلام، ثم يستدير إلي صخرة الرخام يتأملها ويتحسسها بأنامله، ويظل هكذا حتى تأخذه غفوة الليل، فيتمدد إلي جوارها وقد التصق خده بالتراب وانبسط ذراعاه علي الأرض.

فلما تبدلت الأيام قام المنادي إلي عرق الرخام فحفر تحت أحد طرفيه، وجاهد مع غيره من رجال الطريق حتى غرسه في الأرض،

fb/mashro3pdf

وأقامه وثبته في مكانه، ثم نحت الرخام علي هيئة عمود يرتكز عليه الرأس المقطوع.

كانت أصداء طرقاته تقلقنا في الليل وهو يسوي استدارة العمود وينحت الوجه. وكنا نراه في ليالي القمر وقد ربط نفسه إلي العمود بحبال قوية، وهو يواصل النحت والدق، وقد تأخذه غفوة فينام في مكانه معلقاً مثل أفعى علي جذع شجرة.

وتفنن في الرأس فصار من أجمل التماثيل، إذ نحت الوجه علي هيئة النص نص، وإن كسر استدارته بخط طولي يفصل بين جانبي الوجه، فبدا نصفه بشفتين مفترتين فيهما رعشة بكاء، وبدا النصف الآخر بنصف فم ضاحك.

وفرغ الحلق فبدا داخله اللسان المشقوق، ووضع في تجويف العينين كرتين من رخام أسود لا ندري كيف أدخلهما في هذا الضيق.

أما أذناه فطويلتان، تستديران خلف الرأس علي هيئة بوقين يصل تجويفهما إلي فراغ الحلق والعينين، فإذا هبت الريح من جهة ضربت فراغ أحد البوقين ونفذت من مضيق الحلق بصوت بكاء وأنين، وإذا هبت من الجهة الأخرى ضربت البوق الآخر وخرجت من الحلق ضحكا، وفي الحالتين تتحرك كرتا السواد داخل العينين بقوة الريح.

كنا نري ونسمع، ونتعجب من غرائب هذا التمثال الذي أسميناه "عمود المنادي" نسبة إلي الرجل الذي نحته وسواه، ولما أتم عمله مات فوقه، ولم نفطن إلي ذلك حتى تدلي من حباله مثل ذبابة في شرك عنكبوت.

fb/mashro3pdf

دار السراب

تلمع لؤلؤة السراب في إبريق من البلور علي حافة الشرفة الخلفية لقصر السلطنة، وحول الإبريق أطباق تجمعت فيها قطرات من الطل.

اعتاد سلامة خادم القصر العجوز أن يراها هكذا دون أن يقترب منها، لكنه في تلك الليلة اقترب ووقف يتأمل قطرات الطل، ويتعجب كيف جعل الله من مثل هذا الماء الهيّن شراباً للسلاطين.

من أول الزمان وهو في القصر، يرعى الجالس علي الكرسي، ويتسمّع أحاديث الكبار من خلف الأبواب المغلفة، يسمع ولا يبوح، وحين يخلو إلي نفسه في غرفته يحكم إغلاق الباب والشبابيك، ويبلع لسانه فيسد به حلقه حتى لا يتسرب منه كلام في نومه.

ربما لم ينتبه أحد إلي وجوده علي طول عهده بالقصر، فهو لم يقصّر مرة ليفتقده الجالس علي الكرسي، ولم يثقل حضوره في مكان ليلتفت إليه الحاضرون. يفتح الأبواب وينحني بوجه باسم وكلام قليل، ثم يبلع لسانه وتغرب عيناه وينصرف مسرعاً قبل أن يمسك به بصر.

وعلي كثرة ما عرف كان سر هذا الماء ما يزال يحيّره.

قبل الفجر أحكم إغلاق الأبواب علي الأمراء في ديوان السلطنة، كان بعضهم قد غفا في مكانه، والآخرون ما زالوا فى جدال حول من يجلس علي الكرسي بعد السلطان ابن العِجْلة. دارت بهم دائرة الجدال من أول الليل، ومع اقتراب الفجر عادت بهم الدائرة إلي النقطة الأولى،

fb/mashro3pdf

منذ شهور وهم علي هذا الحال. أغلق سلامة الأبـواب ليتجنـب سماع أصواتهـم المثقلـة بالسـهر، وانصـرف إلي الشـرفة الخلفيـة. رأي لؤلـؤة السراب تلمع في قاع الإبريق في ضوء القمر، فاقـترب يتأملهـا ويفكـر في سرها، ثم مد يده وشرب فعرف.

في الليل التالي صب كل ما تجـمع من ماء الطلّ في الإبريق، وتسـلل به إلي غرفته، أحكم إغلاق الباب والشبابيك، وجلس يشرب ويفكـر في حاله. واختلطت عليه الأمور حتى صعب عليه أن يتذكـر إن كـان قـد وجد في هذا المكان قبل أن يوجد القصر أم أن القصر سابق عليه.

طوال هذا الزمان وهو يحـس أن القصـر جسده؛ الجـدران ضلـوع، والشرفات أحداق يشرئب منهـا البصر ليشـاهد العالـم الواسـع الممتـد خلف النهر والحقول، الآن يشعر أنه يريد أن يغادر هذا الجسد.

لفّ الإبريق في طرف شاله وحمل صـرة ملابسـه، ثـم ألقـي السـلام علي الأمراء الجالسين في ديوان السلطنة، وفتح الباب وخرج.

وعلي أخر درجة من سلـم القصر سمع صوت الديك:

ـ كوكو.. كو.

كان الفجر الصادق يصارع الفجر الكاذب في قبة السماء، فلما صرعه عاد الديك يصيح، وغنّى سلامة:

ـ يا هل ترى

دا الحلـم وللا العلـم يا سلامة

ودا طريق الفجر وللا سكة الندامة

يا هل ترى..

رغم كل شئ لـم يلتفت ليلقـي نظـره علـي مـا تـرك، كـان بصـره

fb/mashro3pdf

مشدوداً إلي المشهد الذي يتكشف أمامه، والغناء ينفرط من لسانه.

مر في طريقه بالمنادى، وكان في تلك الأيام ما يزال جالساً إلي عرق الرخام، وهو يبتسم ويعبس، ويهز رأسه ويتنهد كأنه يستمع إلي كلام. سأله:

ـ ماذا تفعل يا عم ؟!

ـ ..

ـ لأي شئ تنصت ؟!

وأدرك أن الرجل مشغول عنه، فناوله الإبريق وقال له:

ـ اشرب، بهذا تسمع أحسن.

ثم أخذ إبريقه وانصرف.

حين بلغ ساحة المرايا كان بدنه النحيل يتطوح فوق خطي قصيرة لقدمين أثقلهما التعب، وبصره قد كلّ من النظر. صحيح أنه سبق إلي علمه خبر كل شئ رآه وتوهمه بصره في شرفات القصر، ولكنها المرة الأولي التي يشاهد فيها كل تلك الأشياء عن قرب.

كان فمه ملآن كلاما، وانعكاسات الشمس علي كسرات المرايا في الساحة تخطف بصره، جلس جنب السور، وظل يغالب الكلام والرؤى حتى غلبه النوم فتمدد في مكانه.

هل كانت تلك هي المرة الأولى التي نسي فيها أن يبلع لسانه قبل أن ينام، ربما؛ فحين استيقظ كان الناس قد تجمعوا حوله يضحكون ويستمعون إلي أخلاط كلام ينفرط من حلقه.

ولما أفاق سألوه:

ـ من أنتَ ؟

fb/mashro3pdf

رأي شفق الغروب يتحلق رءوسهم فتعجب:

ـ ياه؛ نمت كل هذا الوقت.

روّحت عجوزٌ وجهَه بمروحة من ريش البط، وسألته:

ـ أأنت أبو شراع ؟

ـ هه ؟!

ـ هل جئتَ من النهر ؟

ـ هه ؟

ـ من أنتَ ؟

فسقاهم من إبريقه حتى تطوحت الرؤوس، وصارت العين تري الرجل اثنين أو ثلاثة، وقال لهم:

ـ أنا واحد لكنني كثير كما ترون، اسمي سلامة وجئتكم من فوق بشراب هو السحر، فاشربوا من يدي وأطعموني.

وأحب الناس شراب السراب، وزاد حبهم له علي مر الأيام، وصار لسلامة دكان كبير في ساحة المرايا، كتب علي واجهته بخط جميل: "دار السراب".

fb/mashro3pdf

السلطان حضرنا

مضي وقت طويل قبل أن نسمع أول ضحكة من بوق المنادي.

ظل المنادي معلقاً علي عمود الرخام أكثر من عام ينحت ويدق، وسلامة يتسلل إليه في الليل فيصب ويسقيه وينصرف دون أن ينظر إلي عمله أو يكلمه.

وخلال ذلك العام جلس علي كرسي السلطنة ثلاثة، انطوت أيامهم بسرعة قبل أن يستقر الكرسي تحت عجيزة العقرب الكبير. وكان العقرب يريدها لنفسه منذ البداية، لكنه رأي الأمراء الثلاثة الكبار يتوثبون للجلوس، فأخفي ما في نفسه وقال لهم:

ـ أنا عجوز هرم، والأمر يحتاج همة شباب. فاعتبروني خارج اللعبة، واحزموا أمركم علي واحد منكم تكون طاعته واجبة علينا جميعاً، وأنا أولكم.

وكان "الحُلابِس" أمير الفلوس أقواهم بماله، فعكمهم بسلاسل الذهب حتى بايعوه، فهو أول من جلس بعد ابن العِجْلة.

وكان في يده قضيب من ذهب، يختال به في الديوان، ويتطاول به علي الأمراء، ولمس به مرّة ظهر كبير الجند فغضب ونهض إليه، وضربه بركبته فكسر قضيبه الذهبي، وقال له:

ـ عيب.

والحُلابس في اللغة هو السيد والفارس الشجاع، وكسر أهل اللغة باءه من يوم أن كسر كبيرُ الجند قضيبَه الذهبي، وغنى له العامة:

fb/mashro3pdf

ـ نورت يا سيدي الحلابس

تقول "نو"

نقول "بس"

يا سيد القوم فس .. فس.

ولم ينس الحلابس ما فعله به الأمير، وسلّط عليه امرأة فدست له السم في اللحم. ولم يشعر الأمير بشيء حتى خرج من بيتها، فظل يتلوى زاحفاً علي الأرض من وجع السم، حتى مات علي عتبة بيته.

وارتاب زعبر أمير النفوس في الأمر، فأحاط المرأة بجواسيسه حتى عرف ما فعلت، وقال لنفسه: *"كما دبرها السلطان لكبير الجند يدبرها لغيره، وخوفه مني أكبر"*. فسبقه بالمكيدة ودس له السم بيده فقتله وجلس مكانه.

وكان زعبر كريماً حليماً باراً بأهله، دخل عليه أخوه مرة وسأله:

ـ لو كان في يدك قمع من سكر، ومر بك أخوك ابن أبيك وقال: *"هات حتّة"*، فهل تبخل عليه؟

ـ بل أعطيه.

فطلب منه أن يجلس إلي جواره وزيراً.

ولّما عرف بقية أهله الحكاية، طلعوا من الحواري يسعون إليه كما النمل، فسلّموا عليه، وقال كل واحد منهم:

ـ هات حتة.

وكثر وزرائه من أهله، فنهض إليه قُرقُر أمير الحبوس، وقال له:

ـ كثرت أوزارك يا سلطان.

ـ تقصد وزرائي؟

fb/mashro3pdf

ـ بل هم أَوْزَار وقد كثروا، وإذا كنت لا تعرف كيف تجمع الكلمة فراجعها في المعاجم.

ثم وثب عليه فذبحه، وحبس أهله، وجلس مكانه.

ولم يطل جلوس قرقر. إذ كان يوم هبت فيه ريح شديدة، ودوّى صوت ضاحك في الآفاق، وبلغنا الصوت ونحن نشرب في دار السراب، فصرنا نقهقه عجباً حتى صار ضحك عظيم على الأرض. وسمع السلطان فنظر من الشرفة، ورأى الناس يهرولون في الريح، والضحك يجلجل في كل الجهات، فخاف وقال لنفسه: *"أحدهم يدبر لي أمراً"*. وركب حماره وولّى.

كان حماره يبرطع به هارباً، والريح تنفخ في بوق المنادى وتخرج من فم تمثال النص نص ضحكاً، ونحن نضحك ونتعجب.

ولم يظهر قرقر بعدها، ولا نعرف حتى الآن إلي أين ذهب به حماره.

أما أشهر السلاطين في أحاديث العامة طوال ذلك الوقت فهو السلطان "حضرنا"، وهو سلطان لم يذبح ولم يجلس، وهو خيال ووهم لا حقيقة شخص.

وأصل حكايته أن السلطان الحلابس جلس يوماً بين أمرائه بعد أن انكسر قضيبه الذهبي، ولاعبه كبير الجند بالكلام فقال له:

ـ كأني أسمع طبولاً تدق خارج الأسوار، ولعلها الحرب يا سلطان.

فظل السلطان يسمع وهو يغالب ريح الخوف في بطنه، حتى انفلت منه شئ عفّر المجلس وزكم أنوف الأمراء، فظلوا يروِّحون بأيديهم ويقولون:

fb/mashro3pdf

ـ إف.

وخجل السلطان حتى احمر وجهه ودمعت عيناه، فمكر به الأمـراء وسألوه:

ـ لعله خير يا سلطان.

فمسح دمعة كانت معلقة برموش عينه، وقال:

ـ لا شئ، لكن السلطان حضرنا.

وقصده أن ذكرى السلطان ابن العِجْلـة الملقـب بـأبي ريحـه طـافت برأسه، ففاحت رائحته في المجلس، ودمعت عيناه لذكراه.

فضحك الأمراء من كنايته وقالوا:

ـ لا سلطان إلا أنت.

وأخذها العامة من فمـه، وصـاروا يقولـون في مثـل هـذا الموقـف وفي غيره:

ـ السلطان حضرنا.

ومن كثرة ما قالوها اختلط عليهـم إن كـان "حضرنـا" هـذا اسماً أم فعلاً. وكانوا ينسبون لهذا السلطان كل ما لا يعجبهـم مـن غـلاء وشـح وظلم. ومن لطائف الحكايـات أن رجـلاً تـزوج، وولـدت امرأتـه طفـلاً مكتـملاً بعد خمسة أشهر، وسألها فقالت:

ـ السلطان حضرنا.

فطلّقها.

fb/mashro3pdf

يوم الضحك

مال خد سلامة على راحته وهو يصغي للصوت. كان رأسه ثقيلاً، فظل مرفقه ينزلق ببطء علي الطاولة حتى استقر عند التقاء الخشب بالجدار، ورفرفت يده الأخرى حول الكأس حتى تمكنت قبضته منها.

وحده في دار السراب، يشرب ويصغي ويتأمل الأقدام المهرولة. على الرفوف خلفه أباريق السراب وكؤوس من بلّور، هو لا يضع الإبريق الكبير علي هذه الرفوف، إنما يحفظه بعيداً في أخر غرف البيت ودونه أبواب وأقفال.

قبل قليل كان وسط الناس يسقيهم ويغنى لنفسه هـ ساً، خبطت الريح الباب وجلجلت الضحكة الأولى فسكتوا. وحين أطبق الضحك على الأرض، طلعوا إلى الساحة يستطلعون الأمر، ثم هرولوا صوب عمود المنادى يشهدون الأمر الغريب. هو لم يغادر مكانه، ظل جالساً يشرب ويصغي ويغنى لنفسه:

- يا هل ترى

صوتك دا وللا الريح يا سلامة

والضحكة دى للفرح وللا الندامة

يا هل ترى..

جلست عجوز أمام باب دار السراب، غطت وجهها بالشال حتى تتقى غبار الريح، وكلّمته:

fb/mashro3pdf

ـ عمود المنادى نطق، والصوت صوته.

لم يرد فزحفت المرأة بمقعدتها حتى تخطت العتبة، ثم كشفت وجهها وهمست:

ـ السلطان قرقر هرب، ركب حماره وبرطع.

هز رأسه، وظل صامتا كأنما سبق إلى علمه خبر كل شئ.

ـ اسقني يا عم.

شربت من كأسه وشكرت، ونامت فى مكانها علي العتبة.

لم يوقظها إلا صخب الشاربين، جمعهم الليل في دار السراب، يتطوحون، ويستعيدون حكاية ما جرى في النهار. قالت لهم العجوز:

ـ الليلة لا سلطان عليكم، اشربوا وافرحوا فإنكم لا تعرفون ما يأتي في الصباح.

وقال سلامة في تلك الليلة:

ـ جئتكم من الأعالي بشراب السراب فاشربوا واسمعوني؛ معي مفاتيح القصر الكبير، وفي جوفي أسراره.

ـ أي قصر يا سلامة ؟!

فشرب كأسه بيد، وبسط الأخرى بربطة المفاتيح:

ـ القصر الكبير؛ سقوف عالية، وحجرات واسعة تجرى فيها البغال وتنهد، وشرفات تلامس القمر والسحاب.

ـ وكيف دخلته يا سلامة؟

ـ من يستطيع أن يتذكر ما جرى في ذلك الزمان البعيد، ربما صحوت يوماً فوجدتهم قد بنوه حولي، وربما ولدت به، ربما.

كانوا يضحكون لكن العجوز كانت تدفع أقدامهم بعيداً عن مجلسها

fb/mashro3pdf

وتنهرهم:

ـ اسكتوا. واسمعوا.

ـ هناك رأيتهم جميعاً، ملوكاً وأمراء وسلاطين، هم جسد واحد كبير تتبدل عليه رؤوس كثيرة مثل أوراق الشجر. كلما ذبلت ورقه قصفها مقصّ البستاني، أو هبّت ريح فأسقطتها، وتكشف تحتها وجه جديد.

وصاح الديك فنهض سلامة إلى الباب، وغنى:

ـ يا هل ترى

دا الصبح وللا اشتبه

على فصيح الصوت لون ده وده

يا هل ترى ..

ثم التفت إلى الشاربين وغنى لهم:

ويا هل ترى الفجر عدا عليكو

وللا ضلام الليل لسه في عنيكو

انده عليهم يا كوكو:

كوكو .. كوكو..

وصاح الناس خلفه:

ـ كوكو .. كو.

fb/mashro3pdf

العقرب الكبير

من أول الليل وساحة النار خالية، نوّر القمر طريق العقرب الكبير إلى القصر، فتشبث بأطراف عباءته، وقال للعقرب الصغير:

ـ اتبعني.

دار في الساحة دورة كاملة فلم يجد حارساً، دفع باب القصر وصعد السلم بهمة والعقرب الصغير يلهث خلفه حتى دخلا الديوان، جلس العقرب الكبير علي الكرسي، وهمّ الصغير بالجلوس فزجره:

ـ هل أذنت لك ؟

فتحير العقرب الصغير:

ـ مرني يا أبى.

ـ بل سلطانك يا غبي.

ففهم.

ـ لك الأمر والطاعة.

ـ خذ اثنين من رجالك، واذهب إلى رئيس الجند في مضجعه فانزع سلاحه، وعلّق شارته على صدرك.

ـ لك الأمر والطاعة يا مولاي.

ـ بهدوء، لا أريد قطرة دم.

وعاد العقرب الصغير قبل أن يصيح الديك علي رأس طابور طويل من العساكر، فصفّهم حول الساحة وعلي باب القصر، وأمرهم:

ـ إذا صاح الديك فاهتفوا لسلطانكم.

fb/mashro3pdf

وصحا الناس في الفجر على عزف مزامير وطبول وهتاف العساكر:

ـ أعز الـلـه ظل العقرب الكبير.

وقال السلطان للأمراء:

ـ جعلتـم السـلطنة مسـخرة حتـى نطـق الحجـر وامتـلأت الأرض ضحكاً، وقد أقسمت أن أسترد هيبتها ولو ملأت النهر بالجماجم.

ونادى العقربَ الصغير:

ـ يا أمير الجند.

ـ السمع والطاعة.

ـ أنت المقدم على الأمراء وكلهم تحـت إمرتـك، فتخـيّر مـن بينهـم أصلحهم وأقدرهم على تدبير أمور النفوس والحبوس والفلوس.

فخشع الأمراء:

ـ أعزّ الـلـه ظل العقربين.

ولبس شارات السـلطنة وزينتهـا، ونـزل للطـواف في الشـوارع بـين أمرائه، وأمامه طبلة وزمارة وخادم يرش حبات الذهـب علـى طريقـه، وعلى الجانبين أفواه تهتف كما هتفت لكل من سلف:

ـ أعزك الـلـه بذهبك وأيدك بجندك.

وسامر السلطان أمراءه في الليل فقال:

ـ كنـت أظـن الشـباب أنسـب للسـلطنة، لكنهـم أكلـوا بعضهـم، وختـمها قرقر بفراره كالمخبول على حمار أجرب فلـم نجـد لـه ظـلاً، ولو طلـع الصبـاح علينـا وهـذا الكرسـي لا يـزال خاليـاً لأكلنـا العامـة ومصمصوا عظامنا، وصار أمرنا فكاهة على الألسنة.

ثم نهض وفرد قامته حتى طاول السقوف العالية، وسألهم:

fb/mashro3pdf

ـ هل يقدر على الأمر بعد هذا الهزل غير شيخ مثلى له حكمة ووقار.

فركع الأمراء هاتفين:

ـ أعز الله ظل العقرب الكبير.

fb/mashro3pdf

يوم النواح

صيف؛ رصّ سلامة الأطباق فوق سطح البيت ليجمع قطرات الطل، ثم جلس أمام الباب ينتظر زبائنه.

كنست العجوز المكان ورشته بالماء. منذ يوم الضحك لزمت دار السراب، لم تطلب ذلك، ولم يطلب منها سلامة غير ذلك، بدا الأمر كأنه غير قابل لكلام أو نقاش. أحيانا تتجول على شاطئ النهر أو في ساحة المرايا، تجمع ريش البط وتصنع منه مراوح تبيعها في دار السراب في ليالي الحر.

مع الوقت لم يعد يخفي عليها شئ في البيت، حتى الغرفة التي يحفظ فيها سلامة الإبريق الكبير. يفتح الباب فتتبعه، تساعده في مَلْء الأباريق الصغيرة، وصبّ ماء الطل في الإبريق الكبير، تتأمل لؤلؤة السراب الراقدة في القاع وتتعجب.

في ذقنها بقايا وشم، وفي عينيها احمرار كأنهما جرحان يهمان بالالتئام، أحياناً تولى وجهها لحائط وتكلم نفسها، وحين يدركها النوم تغطى وجهها بشال أسود وتغفو في مكانها على الأرض.

نامت؛ في الحلم رقدت تحت كومة من حطب علي شاطئ نهر، تحفق شراع وخرير ماء، يدها مفرودة صوب الشراع البعيد، وفي الحلق نداء ظلت تجاهد لإطلاقه حتى آخر النوم.

داس أحد الزبائن يدها فانتبهت متوجعة، والتصقت بالأرض تتوسل:

fb/mashro3pdf

ـ ارحمني يا جندي.

ـ هه؟

دققت نظراتها في وجهه:

ـ كأنك من عساكر الكافوري.

ـ بل أنا ظل الفأر يا خالة.

فلما أيقنت من النجاة شتمته، ورشّته بالتراب:

ـ يلعن ظلك، ظل نحس.

في تلك الليلة جاء قليل من الناس، شربوا وانصرفوا مسرعين طلباً للنسيم على شاطئ النهر. ولزم شابان دار السراب حتى مطلع الفجر، انزويا في ركن وظلا يشربان ويتجادلان، كان أحدهما يقول: "آه". والآخر يقول: "لا".

قال النحيل الطويل لصاحبه:

ـ ابن العِجْلة كان غير هؤلاء، هو الذي أنشأ معاهد العلم وهندس الساحات والطرق، أما أن يصير أمرنا إلى أمثال الحلابس وزعبر والعقرب فلا وألف لا.

فقال القصير البدين:

ـ على أي شئ تلوم العقرب وهو لم يجلس إلا منذ شهور قليلة ؟

ـ وهل ننتظره أكثر من ذلك ؟

ـ آه.

ـ لا.

ـ آه.

ـ لا.

fb/mashro3pdf

بقي ظل الفأر أيضا في دار السراب حتى آخر الليل. جلس وحيداً صامتا على طاولة، ينتف شعر حاجبيه ويشرب. أحياناً يتلفت صوب الشابين ويبتسم، ثم يهرب بنظراته إلى الكأس متأملاً الطيور السابحة صوب حافة البلّور.

أصغى سلامة للكلام، وطافت برأسه ذكريات أيام بعيدة وأخلاط كلام سمعه من خلف أبواب مغلقة. صب كأسين، وحيا الشابين:

ـ كوكو.. كو.

وقال لنفسه: *"الليل يدخل علي النهار خلسة، والنهار لا يطلع إلا بتعب"*.

في ذلك الليل هب نسيم بارد فأسقط أوراق شجر ذابلة، وبدد سحابات صيف. كان السلطان يرقب المشهد من الشرفة العالية وسط السحب والنجوم التي تنطفئ واحدة بعد أخرى، لف صدره بشال وأطرق يصغي لأصوات نواح تتجمع فى الآفاق.

فى آخر الليل استأذن العقرب الصغير في الدخول عليه، فلما وقف أمامه أطرق وقال:

ـ هي الفتنة يا سلطان.

ـ هه ؟

ـ نفر يمشون في الساحات والأسواق، يحدثون الناس بكلام سوء.

ـ هات من الأخر.

ـ بين رجالنا من يعجبه كلامهم، ويحجب عنا أسرارهم.

ـ من ؟

ـ بعض رؤساء الدرك وكبراء الحارات.

fb/mashro3pdf

ـ إياك والدم.

ـ ولا نقطة.

ـ كيف ؟

ـ ترقبت حتى تجـمعت الخيـوط في يـدي، فسـبقتهم بسـوء الظـن وأسلمتهم لأمير الحبوس.

تغيّر اتجاه الريح في بوق المنادى، فنفذت من نصف الوجـه البـاكي نواحاً متقطعاً.

قال الكبير للصغير:

ـ سامع؟

ومن الشرفة رأى العقربان ما يجرى تحت.

فى آخر عتـمة الليل تشابكت الأيادي حول عمـود المنـادى وأنشـد الشباب:

ـ يا رياح النور هبي للعلا

واحملينا نصنع المستقبلا.

اشتد النواح، وطلع الناس من الحارات يتطوّحون في الريح والظلام، وأمامهم صبيان يهتفون:

ـلا، وألف لا.

وتوارى القمر فحجب بقية المشهد.

قال الكبير للصغير:

ـ أرأيت، كيف أفلتت الأمور إلى هذا الحد ؟!

fb/mashro3pdf

البيضة والحجر

دار العقربان خلف بعضهما في الديوان. شبك الكبير يده خلف ظهره وقد تقوس طوله ومال رأسه إلى الأمام. دار دورة كاملة: *"تك .. تك .. تك"*، فتبعه الصغير بخطوة واحدة ثقيلة محاذرة: *"تك"*.

ولما أتم الكبير دورته، وقف على رأس الصغير وقال له:

ـ ما زال في الحكاية كلام.

ـ كلام الكبار انتهى وأمرهم في قبضتي، ما بقى إلا لغو الصغار.

ـ فهل اسمع وهماً ؟!

ـ هم طلاب معهد "أقول لا" اجتمعوا حول عمود المنادى، ولو زاد لغوهم أطلقت عليهم عساكري ففرقوهم بخيرزانه وأغلقوا معهدهم.

ـ يا عقرب يا ابن العقرب ليس هذا كلام حكام.

ـ فعلمني يا أبى ويا سلطان زماني.

دار دورة كاملة: *"تك .. تك .. تك"*، ثم وقف على رأسه وقال:

ـ العاقل من يترك كل ترس يدور في مكانه وحسب هواه، لكن المهم أن تتجمع حركة كل التروس في الاتجاه الذي تريده أنت، وإن بدا ترس منها في عكس الإتجاه.

ـ زدني.

ـ دار ترس النواح؛ فلا تضع يدك بين أسنانه فيكسرك أو تكسره، وفي الاثنين خسارة، وإنما ضع أمامه ترساً ينقل حركته إلى الاتجاه الذي تريد، وبذلك تزيد حركتك قوة، وتنشط آلة حكمك.

fb/mashro3pdf

- زدني.

- لاعب أمراءك بالبيضة والحجر، ولاعب شعبك بالعصا والجزرة.

وظل يدور في الديوان: *"تك .. تك .. تك"*، فلما استبطأ العقرب الصغير كلامه تبعه وقال:

- زدني.

فوقف على رأسه وقال:

- بين رجالك من تخشى حيلته؛ فاضرب هؤلاء الصغار بيده، ثم اضربه بذنب هؤلاء الصغار، فتلك هي البيضة والحجر.

- إيه.

- أما هم فطوقهم بعساكرك حول عمود المنادى دون أذى، واعزلهم عن الناس حتى يجوعوا. فإن جاعوا انثر الذهب على رؤوس الناس أمام عيونهم، ثم فاوض أضعفهم وأكثرهم جوعاً، فيكون حقدهم على بعضهم أكبر من حقدهم عليك، وأملهم فيك أكبر من أملهم في بعضهم، وتلك هي العصا والجزرة.

fb/mashro3pdf

الرقّاص

وفقست البيضة تحت جناح الرقاص، فبعد أن أتم العقرب الصغير لعبة العصا والجزرة، استدعاه بليل وقال له:

ـ عينتك أميراً للحبوس، لكن اكتم هذا الأمر عن غيرك حتى تتمكن منه.

وكان الرقاص حتى ذلك الوقت من جملة رؤساء الدرك فاستعظمها على نفسه، وفرك عينيه وبرقت نظراته:

ـ إيه ؟!

ـ كلامي أمر، لكن فوقك أمراء لن يمكنوك من مكانك قبل أن تتمكن من رقابهم، فدبر أمرك معهم، أما الآن فانتظرني خلف هذه الستارة حتى أدبر لك أمر الترباس.

واستدعى الترباس وقال له:

ـ أأعجبك ما فعلت بنا يا أمير الحبوس؟!

ـ هه يا سيدي.

ـ كأننا كنا سلّطناك على أنفسنا لتشعل غضب الناس علينا وتثير الفتن.

ـ بأمرك تم كل شئ يا سيدي.

ـ لو أحسنت تدبيرها في أولها ما ضاقت بنا في آخرها.

ثم نادى الرقاص، فبرز من خلف الستارة:

fb/mashro3pdf

ـ أمرك يا سيدي.

ـ ضع يدك على رقبته، واجلس مكانه.

فقيّده الرقّاص بالحبال وألقاه في السجن، ومضى لتدبير أمره مع غيره من الأمراء. وما طلع الصباح إلا وقد أجلس العقرب الصغير على كراسي الأمراء الكبار من كانوا لا يطمعون فيها، وقال لهم:

ـ رأيت فيكم ما لم تروه في أنفسكم فلا تخيبوا ظنوني.

فقبلوا الأرض وهتفوا:

ـ أعز الله ظل العقربين.

ـ إن حسُنت أعمالكم زدتكم، وقال الناس: *"رأى فيهم ما لم نره"*. وإن قبُحَت أعمالكم في عيني بطشت بكم، وقال الناس: *"أعطاهم الفرصة، فلما بانت عيوبهم خلصنا منهم"*.

ـ أعز الله ظل العقربين.

أما العقرب الكبير فدار في الديوان وتكتك، وتردد وقع خطاه في الأفاق: *"تك .. تك .. تك"*. فلما أتم دورته وقف على رأس العقرب الصغير، وقال له:

ـ تك .. تك .. تك.

ـ تك.

ـ أنعم عليهم ولكن لا تسمنهم، فإنهم إن جاعوا أكلوا شعبك، وإن سمنوا استغنوا عنك. واجعل تحت كل واحد منهم مسماراً من رجالك تنخسه به إذا نسي نفسه، فيضعفان أمامك، هذا يخوفه منه وذاك بأمله فيك، تك .. تك .. تك.

ـ تك.

fb/mashro3pdf

ـ لا تقيد ألسنتهم، فإن الكلام شرك يصطاد همه صاحبه. ولا تمنع الناس عن شئ إلا مضطراً، وأترك لهم أمر ما ينفعهم ولا يضرك، وأطعم حلوق أهل الغناء السكر فيحلو كلامهم، لكن لا تقربهم منك فتهزل مجالسك.

وقال:

ـ يا عقرب يا ابن العقرب؛ كن صاحب أمر لا صاحب رأى، فإن الرأي يوقع في الجدال، وفي الكلام مهما صح آفة تنقصه، فاجعل الأمر لك والرأي لرجالك، واعقد الخيط على منتصف العصا يستقم الميزان.

وقال:

ـ احترس من رجل زاهد في النساء ففيه قسوة لا ترحم، ومن امرأة راغبة في الرجال ففيها نزق لا يصون، ومن ولد يتحدث بلسانك في المجالس فإنه يصغرك بين الناس، ومن بهيمة لم تروضها فإنها لا تحفظ قدرك، ومن آفة تدخل بدنك فإنها تحوجك إلى غيرك.

وقال:

ـ يا عقرب يا ابن العقرب؛ أكثر من أعيادك واختلق لأيام الحزن مناسبات للفرح، فيدخل هذا على ذاك فيبطله، ولا يبقى إلا لهو الناس وفرحهم.

وسمع العقرب الصغير ووعى، ونهض للعمل بهمة فأكمل هندسة ساحة النار وجعل فيها النوافير والحدائق، وبنى داراً للخيال علي الطريق المرصوف بين الساحتين. ولما دار العام وجاءت ذكرى يوم النواح؛ نادى العقرب الصغير الأمير الرقاص وأمره:

ـ بدل أيام الناس يا أمير، وأجعل يوم النواح عيداً للفرح.

fb/mashro3pdf

وفي ذلك اليوم علقت الزينات في الساحتين وعلي الطريق بينهما، وطاف الأمير الرقاص على رأس عساكر الدرك وأمامه طبلة وزمارة، وعلى يمين العساكر طابور من طلاب معهد "أقول آه"، وعلى يسارهم طابور من طلاب معهد "أقول لا"، وخطى الجميع منتظمة مع إيقاع الطبال.

وفي العصر قص العقرب الصغير الشريط الحريري إيذاناً بافتتاح دار الخيال، وكان أبو ربابة هو أول من وقف على منصة الدار، فقبل أن تبدأ تمثيليات الخيال اعتلى المنصة ووقف أمام شاشة القماش، وغني أغنيته التي ما تزال مشهورة إلى اليوم:

ـ أقول لا ..

تقول لا ..

وتقول قلوبنا آه.

fb/mashro3pdf

دار الخيال

لم يكفّ عمود المنادى عن الضحك ولا عن النواح، وإن كان صوته قد أصبح رتيباً مألوفاً لا يثير العجب. التجار الغرباء وحدهم يتوقفون أمامه طويلاً، يتسمّعون صوته، ويتأملون الوجه الضاحك الباكي، ويتعجبون. أحياناً يشترون تماثيل من فخار علي هيئة رأس النص نص يبيعها صبيان وبنات حول العمود.

بنى العقرب الصغير حول العمود مصطبة من رخام أسود، وأقام علي أطرافها ثمانية أعمدة يحمل كل واحد منها ثلاثة قناديل. في الصيف يسهر الطلاب علي المصطبة، يعزفون على الناي ويتناقشون، ويطول نقاشهم أحيانا حتى مطلع الفجر بين "لا" و"آه".

وفي ليالي السهر يركض صبيان من مكان إلي آخر، يبيعون اللب والترمس وقراطيس البخت، وبينهم ظلّ الماء يحمل إبريقا من فخّار أحمر ويبيع الماء البارد:

- بلّ ريقك.

أحيانا يجلس الصبيان جنب دار الخيال، يتسامرون وينتظرون خروج المتفرجين.

يوم تمثيلية "حرب البنات" جلست العجوز بينهم، جذبها صوت صبي ينادى على البخت:

- الذهب بسعر التراب.

سخرت منه:

fb/mashro3pdf

ـ الذهب الحقيقي كان عند زوبة؛ خلخالها إطار غربال، وأقراطها عناقيد بلح.

ـ اشترى مني يا خاله.

ـ ذهبك تراب يا شاطر، أما ذهب زوبة فراح وراحت أيامه، تل ذهب جلس عليه الحكيم في زمانه، لو شاهدت التمثيلية لرأيت وعرفت.

وسألته:

ـ ما اسمك يا فتى؟

ـ ظل التراب.

فكّت عقدة في طرف شالها، وناولته قطعة سكّر:

ـ خذ يا زبالة الظلال.

أعطت الصبيان أيضا، وحكت لهم:

ـ ظلمها الحكيم، وظلم الكافوري بناتها من بعده، سبقهن بالغدر، ورماهن في النهر، لم ينج من بنات زوبة غيري، لكن ابنتي ضاعت مني.

يوم حرب الكافوري مع البنات كنت قد ولدتها لتوّي، سمعت العساكر وهم يدفعون الأبواب ويخطفون بنات زوبة، خفت، وضعت البنت في جرة وختمت حلقها بالقش، ورقدت تحت كومة حطب على شاطئ النهر، كان دم النفاس ما زال يقطر مني.

أرقدني الخوف تحت الحطب أياما، وحين نهضت لم أجد الجرة، ورأيت شراعاً يخفق على بعد، ناديته:

ـ *عم يا مراكبي.*

fb/mashro3pdf

لم يرد، أخذها وفرد شراعه. كان اتجاه الريح موافقا تيار الماء، والمركب يجرى.

ـ *عم يا مراكبي.*

تسلل ظل التراب وشاهد التمثيلية. غافل حارس الباب ودخل بدون تذكره. ظل طويلا يحدث صاحبه ظل الماء عن مشهد الحكيم وزوبة ليلة إبرام العهد مع أمير الظلال:

ـ جالس على تل من ذهب، وكلامه بحساب.

ـ وماذا جرى في حرب الكافوري مع البنات؟

ـ لم أشهدها، ضبطوني قبلها، وطردوني من الصالة.

أحيانا يذهب سلامة إلى دار الخيال، يشاهد الخيالات المتحركة خلف شاشة القماش، ويتعجب مما يرى ويسمع، يطرق ويغنى لنفسه:

ـ يا هل ترى

دا اللى جرى يا سلامة

وللا العيون غطّت عليها غمامة

يا هل ترى..

في ليلة من ليالي الخريف شاهد تمثيلية "الوزير الغدّار"، فهاجت أفكاره وهو يرى خيال النص نص يدور حول السلطان ليطعنه من خلف، نطّ على المنصة وصاح فيه:

ـ ضُمّه إلى حضنك وقبله بين عينيه.

ضحك الناس، وارتبك الممثل قليلاً ثم أكمل الدور، فلما حمل رأس ابن العِجْلة على طرف السكين، رفع سلامة شاشة القماش وقال له:

ـ ابك؛ كما بكى النص نص على صاحبه وحبيبه.

fb/mashro3pdf

دفعه أبو ربابة بيديه حتى أزاحه من على الخشبة، ثم هرول خلف الستارة، وعاد حاملا رأس النص نص، فطاف به في الصالة بين المتفرجين والممثلون يصيحون خلفه:

ـ هذا جزاء من خان .. هذا جزاء من خان.

حاول سلامة أن يبلع لسانه، لكنه كان لا يلبث أن ينسل من جوفه ويحكي:

ـ ليلة طواف السحر لم ينم خادم القصر، سهر طوال الليل في الشرفات يترقب عودة ابن العِجْلة ووزيره النص نص. خشي أن يغلبه النوم، فصعد إلى البرج يتسلى بالقراءة في دفاتر الديوان، كانت عيناه على الأوراق وأذناه تترقبان الخطى.

سمع الخطى الثقيلة على الدرج، ورأى الظلين يتطوحان في نور القنديل. توارى خلف ستارة، ومن مكمنه رأى النص نص يقبل صاحبه بين عينيه ويهمس: *"يدي أحنّ عليك من غيري"*.

صاح ظل الفأر:

ـ يا سلام على الفن.

وغنّي سلامة:

ـ يا هل ترى

أبكى اللى رأسه على الحديد محمولة

وللا اللى عينيه بالدموع مشغولة

يا هل ترى..

fb/mashro3pdf

ظل الفأر

رغم ليل الخريف لم يحس سلامة بالبرد.

كانت أجنحة ثوبه الأبيض الخفيف ترفرف في الهواء، وظله يطول ويقصر في ضوء القناديل:

ـ يا هل ترى

أنا كنت وللا ما كنت

وقلت وللا ما قلت

يا هل ترى..

في تلك الليلة تبعه الفتى لاهثا وهو ينفخ راحتيه ليدفئهما بصهد جوفه، كان يسرع خلفه وهو يتعجب لطول قامته واتساع خطواته. وحين حاذاه حيّاه:

ـ حفظتك العتمة يا عم سلامة.

فسأله دون أن ينظر إلى وجهه:

ـ من أنت ؟

ـ اسمي ظل الفأر، سمعتك في دار الخيال وأحببت كلامك، فيه فن أحسن مما في كلام المثلين. لماذا لا تغنى في دار الخيال بدلاً من أبو ربابة، صوتك أحلى.

فعاد سلامة يغنى:

ـ يا هل ترى

fb/mashro3pdf

دا صوتي وللا سكوتي

ودا دليلي للحياة وللا موتى

يا هل ترى..

سكت الفتى، وظل يحجل حوله وهو ينفخ راحتيه ويتعثر في خطواته حتى دخلا دار السراب. كانت العجوز تخدم الشاربين وعيناها على الباب، فلما رأت سلامة ارتاح قلبها. سألته:

ـ من معك ؟

ـ ظل الفأر.

سحبت الفتى من بين الناس وتأملت وجهه في ضوء القنديل، عرفته بشاربه النحيل وأذنيه الطويلتين، شتمته:

ـ الفأر نجس وظله أنجس.

ـ أتعرفينه يا خاله ؟

ـ احفظ شكله منذ زمن، وكأني رأيته يوم حرب الكافوري مع البنات، ذات يوم داس يدي وهرسها بنعله، ما زالت توجعني إلى الآن.

انزوى في ركن يقضم أظافره حيناً، وينتف شعر حاجبيه حيناً آخر. ولما دب شراب السراب في عروق رأسه خرج من مكمنه، واندمج في الحوار مع الجالسين حوله.

كان حديث سلامة في دار الخيال قد حرك أفكار الناس. شد أبو ربابة وتر الكلام وقال:

ـ أفسد سلامة التمثيلية.

فخالفه ناس في كلامه:

fb/mashro3pdf

ـ لا.

ووافقه آخرون:

ـ آه.

تناقشوا طويلاً حول حق الممثل في الخروج عن الدور المكتوب، وحق المشاهد في الاعتراض، وفي الحدود بين المنصة وقاعة المتفرجين.

ودارت كؤوس الكلام حتى مطلع الفجر.

حول عمود المنادى دارت مناقشات أخري، إذ انشغل الطلاب بمسائل العلم والفلسفة. وكان مما شغلهم وزن الظل وقياس الظل ورصد ظل الظل وتحريك الظل. وجلس العلماء يحصرون من الأشياء ما لا ظل له، فقال بعضهم: *"والماء لا ظل له ولكنه أصل كل ذي ظل"*، وقال آخرون: *"بل الهواء"*، وقال واحد منهم: *"بل النور"*، فتعجب الناس لكلامه وسخروا منه فى المجالس، وأسموه أبو النور.

ولما رأى أبو النور أن الناس يتعجبون لكلامه، ويسخرون منه ،شك في نفسه وفيهم، خاف؛ حمل صرّة هدومه بليل وهرب.

fb/mashro3pdf

ظل النسيم

كان طعم البسبوسة ما يـزال في حلـق العقـرب الصغـير حـين صعـد سلـم القصر وقال للعقرب الكبير:

ـ لو أذن لي سلطاني لأطلعته على أمر يخصني.

ـ إيه ؟

ـ الزواج يا مولاي.

فدار في شرفة القصر: *"تك .. تك .. تك"*، ولما اكمل دورتـه وقـف علي رأسـه وقال له:

ـ اسمع من أبيك.

ـ مرني يا أبى وسيدي.

ـ إذا عزمت فتخير واحدة تجـمع في حسنها ما تشتهيه في النسـاء، فتغنيك بنفسها عن غيرها. وأحسن الركوب فإنك إن قصـرت أحسـنت هي ركوبك. وادخر من قوتـك لأيـام ضعفـك. وتشـاغل عنهـا بـأمور لا تفهمها فيطول تودها إليك، فإن آفة النساء الفضـول، ولكـن إيـاك أن تنشغل عنها بامرأة غيرها فتشغلك هي بغيرك.

وسأله:

ـ من المرأة ؟

ـ ظل النسيم، ابنة الأمير الرقاص.

ـ فاسمع من سلطانك.

ـ مرني يا سلطان الزمان.

fb/mashro3pdf

ـ إذا صاهرت رجلا من رجالك فلا تسمع قول ابنته في أحد ممن حولك. وباعد بينها وبين نساء رجالك، فإنك لا تعرف ما تدبر لك مع أبيها. وقرّب إليك من رجالك أبغضهم إلى قلب صهرك فتجمع في أذنيك أسرار الرجلين. وباعد بينه وبين أولادك فهم أقرب إلى قلبه منك، وهو يستعجل زوالك ليمكنهم من ملكك. واحفظ سرك في جوفك، فلا يندلق منك في سريرك أو على مائدة طعامك. واعكم حماتك بسلاسل الذهب، وأرها من الخير ما لم تره من زوجها، فهي عيناك عليه في داره وواسطتك عند امرأتك.

ودار في الشرفة، ثم وقف على رأسه وقال له:

ـ يا عقرب يا ابن العقرب؛ للنساء أمراء وخدام، فكن أميراً في ديوانك، وأميرا في دارك، وإذا زهدت في المرأة فاصرفها بخير، ولكن اصرف أبيها قبلها. واحذر عداوة المرأة والولد الأحمق وصديق الحاجة.

وركب العقرب الصغير فأحسن الركوب. وطاف الأمير الرقاص بمنديل العرس على رأس طابور من العساكر، وأمامه طبله وزمارة وخادم يرش حبات الذهب والحلوى على جانبي طريقه.

وبعد أيام العرس جلس العقرب الصغير يدبر أموره، ومما شغله أمر الصداقة بين صهره الرقاص أمير الحبوس والأمير ملقاط أمير النفوس.

وصادف في تلك الأيام أن كثر سفر الناس للشغل عند غيرهم من الناس لكسب القوت، فاستدعى العقرب الصغير أمير النفوس ولامه على ذلك:

ـ استعبدت الناس يا ملقاط، وعملت منهم تجارة.

ـ يا سيدي؛ ليست تجارة وإنما هي إعارة.

fb/mashro3pdf

فأراح ظهره على المقعد وقال:

ـ أحسنت الإجابة يا ملقاط، وأرشدتني إلى مـا فيـه خـير لي وخـير لك.

ـ كيف يا سيدي ؟

ـ كما أعرت الناس لغيرهم من الناس أعيرك أنا إلى أمير الحبوس.

fb/mashro3pdf

زَمْبَلِك الزّمان

ليلة هروب أبو النور لم ينم الولد، سهر في ركن البيت يلعب بالتروس.

سمع أمه تعاتب أباه وتتوسل إليه بصوت أقل حدة مما اعتاد منها:

ـ أتهرب منهم أم منى يا أبو النور؛ إن كان زعلك منى فإن ضيق الأرزاق يضيق الأخلاق، وإن كان خوفك منهم فطاوعهم في الكلام وقل لهم ما يرضيهم، واقعد.

تشبثت يده بلحيته الطويلة وقال:

ـ السهم نفذ، والجلوس بين أهل الظلال ضلال.

ـ هم أهلنا يا أبو النور، والحكاية كلام في كلام.

ـ ليس كل الكلام كلاماً.

ـ ماذا يكون إذن، أهو باذنجان؟!

طرقت أصابعها باب الفهم في صدغها:

ـ ربما باذنجان!

أطرق وسكت، هي لم تسكت:

ـ يا رجل كلّمني كما أكلمك، ولا تناطحني بالألغاز.

ظل صامتا فخشيت أن يفلت خيط الكلام من يدها:

ـ لو طاوعتني لأرتاح قلبك من الفكر وارتاح لساني من الكلام، اطلع

fb/mashro3pdf

عليهم بفانوسك السحري واعرض عليهم حيل النور والظل، واجعل الفرجة بأجر فيتسع رزقنا، وإذا أعجبتهم أفعالك قد يسمعون كلامك.

فارتجف ظله في ضوء القنديل، وقال لها:

ـ يا امرأة هذا شغل تجار لا أصحاب أفكار.

كان الولد مشغولاً باللعب وهو ينقل حركة ترس كبير إلى ترس أصغر، ثم ينقلها إلى ترس ثالث في اتجاه آخر. نهض أبو النور، ربّت رأس الولد وقبل جبينه.

ـ خذنا معك يا أبى.

ـ قد تطول غربتي يا بني، ولا أعرف أين سأضع قدمي.

ثم أطرق وفكر.

ـ ذات يوم سأعود.

في الخارج نباح كلب، وقمر، وعطر أزهار تتفتق في رعشة ليل ربيعي، ووقع خطى يتردد في الآفاق: "تك .. تك .. تك".

أشارت صوب الشرفات العالية وقالت:

ـ سهران، انتظر حتى تهدأ خطاه، وتغفل عينيه.

أصغى ولم يسمع، تقوَّس ظله تحت ثقل صرة الهدوم وودعها:

ـ إلى اللقاء

ـ تضعنا على كف الريح وتهرب!

ـ ذات يوم سأعود.

تعلقت بكم جلبابه وبكت، فضمتها يده الخالية إلى حضنه وهمس:

ـ اصبري يا امرأة.

تعثرت خطى الولد بين إقدامهما المتعانقة، فلما انتبهت له رفعته

fb/mashro3pdf

إلى أبيه فقبله:

ـ إلى اللقاء يا زمبلك الزمان.

هكذا أسماه قبل ستة أعوام؛ زمبلك الزمان. والزمبلك معروف، وهو لفظ دخيل على اللغة أصلاً، لا ينطقه العامة إلا زمبلك، ولا تثبته المعاجم إلا زنبرك أو زنبلك نكاية فيهم.

ـ إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

ولم يطل موعد اللقاء وإن كان قد جرى على غير ما تمنى أي واحد منهم، فقبل أن ينقضي شهر عاد ناس بصرة الهدوم، وكومة من عظام أكلت الذئاب ما عليها من لحم. طرقوا البيت ليلا وقالوا:

ـ لقيناها خلف التلال البعيدة.

فلما فتحت صرة الهدوم عرفت وفهمت؛ خبطت صدرها وشهقت:

ـ أبو النور!

ـ اصبري يا أم النور.

وكانت الذئاب تعوي علي البعد:

ـ عو .. عو.

fb/mashro3pdf

أبو شراع

كانت العجوز مشغولة بهمّها، خرجت تتسمع الأصوات في الليل؛ أضواء قناديل تتقلب على كسرات المرايا في الساحة، وفي الأفق أخلاط ضحك وبكاء. لفت الشال حول رأسها وسارت على طريق النهر، وعند بيت الانتظار أخرجت شمعه من صدرها وتوسلت للراقد في الضريح بألقابه:

ـ طول المعاندة حرام يا كافوري، جئتك أنوّر شباكك فلا تثقل على بظلمة قلبي. رد الغائب يا أبو سراب، الريح ريحك، والأمر أمرك، أنت صاحب الكلمة، والجالس على الحِجْر.

ثم حولت وجهها صوب ضريح ظل الفل، لم تره على البعد لكنها زعقت:

ـ حلّى عقدة لسانه يا صاحبة الخيطين.

صمد لهب الشمعة في وجه الريح وهي تنفلت من بين القضبان، وهرولت ظلال على جدران البيت. انحنت جذوع الأشجار لتفسح الطريق، وشب ماء النهر ليرى دون أن يسألها: *"إلى أين يا ريح"*.

كان الليل في أخره حين أنتبه أبو شراع، فوقف على الدفة يتسمع هبوب الريح وأخلاط الأصوات البعيدة.

منذ زمن ربط قاربه إلى جذع شجره وجلس ينتظر، زمن طويل شابت فيه رموشه.

fb/mashro3pdf

زمان دفعه تيار النهر والريح حتى وجد نفسه هنا، الآن لا يستطيع أن يرجع وقد ضعف ساعده وتآكل مجدافه.

مرت سنون وهو ينتظر ريحاً تنفخ شراعه وتساعد مجدافه عكس التيار. سأل نفسه: *"هل آن الأوان؟"*.

ما زال في سمعه نداء بعيد لامرأة على شاطئ النهر:

ـ عم يا مراكبي.

يومها حمّل مركبه بأباريق وآنية من فخار، نقل الحمال بضاعته من على شاطئ النهر وزاد عليها جرّة. هو لم ينتبه إلا بعد أيام، كان قد باع بضاعته وبقيت الجرة في بطن القارب، لم يبعها ولم يفتحها، قال لنفسه: *"ذات يوم سأعود"*.

أحياناً كان يوقظه صوت، ظل طويلاً يصغي دون أن يعرف من أين يأتي. ذات يوم وضع أذنه على بطن الجرة وأنصت: *"كأنه غناء يا أبو شراع، عجيب"*. رغم ذلك لم يفض ختم القش عن حلق الجرّة، الحقيقة خاف.

سنة بعد سنة والجرة في بطن القارب تحت الشمس والريح، في كل يوم يراها أكبر، ظلت تكبر حتى ملأت بطن القارب، زاد خوفه.

كان الناس يسألونه:

ـ بكم تبيع هذه الجرة الكبيرة يا أبو شراع ؟

ـ ليست للبيع، هي أمانة حملتها في غفلة مني، وذات يوم سيستردها صاحبها.

عرضوا عليه مالاً كثيراً ورفض:

ـ هي أمانة يا ناس، ولا أعرف ما إذا كان في جوفها خير أم شر.

fb/mashro3pdf

ليال كثيرة سهر يصغي إليها، مرات فكر أن يرميها في النهر أو يحملها إلى الشاطئ ويفرد شراعه ويهرب.

كان يتحسسها بأطراف أصابعه ويسألها:

ـ ما حكايتك يا سيدة الجرار؟!

راحت سنون وجاءت سنون، وذات فجر سمع صوتاً فنهض إلى الجرة، رآها تتشقق تحت شعاع الشمس الأول والديك يصيح:

ـ كوكو .. كو.

ورأى البنت تخرج من بين كسرات الفخار، فدعك عينيه وتعجب:

ـ تبارك من صور وأبدع.

تمطت وفتحت عينيها:

ـ من أنت؟!

هدهد النهر القارب ونهضت البنت. تأرجح على حافة القارب من فتنة ما يرى:

ـ من أنت؟!

ثم فرد عباءته عليها وأجلسها على الدفة:

ـ اجلسي يا نهرية.

الليلة، حين سمع أخلاط الأصوات البعيدة خمن ما سيكون، ربت خدّ البنت النائمة في بطن القارب، وقال لها:

ـ قومي يا نهرية، آن الأوان.

fb/mashro3pdf

خمسة وخميسة

لحس ما بقى من طعم البسبوسة في أصابعه، وتلذذ بالمذاق.

ـ بالهنا والشفا.

تأمل طابع الحسن في ذقنها، وطوّقها بنظرة راضية:

ـ كل شئ فيك حلو يا ظل النسيم.

وسمع وقع خطى العقرب الكبير تتردد في الآفاق: *"تك .. تك .. تك"*، فقال لنفسه: *"أيام كثيرة مضت ولم أصعد إليه"*.

وكأنها سمعت فقالت:

ـ إذا صعدت الليلة فلا تبطئ يا عقربي الصغير، أمامنا ليل عامر بالمسرات.

طاف بسرير ولده البكر مفتاح، فقبله وهو نائم وشدّ عليه اللحاف، ثم لبس زينته وشاراته، وخرج.

قبل أن يدخل القصر رفع رأسه وتأمله من الخارج، لم يدرك بصره نهايته، تعجّب. الآن هو يلهث، يجر قدميه علي درجات السلم ويجاهد الصعود. قال لنفسه: *"ياه طويل، كم سنة استغرقها البناء، ليصلوا به إلى هذا الارتفاع"*.

حين دخل الديوان حول السلطان وجهه عنه وعاتبه:

ـ الآن فقط تذكرت أيها الأزَبّ المدب ؟!

والأزَبّ في اللغة هو الرجل كثير الشعر، وهو معنى لم يقصده،

fb/mashro3pdf

والمدب من يدب بقدمه على غير هدى فلا يميز موضع خطوه، وهو معنى قَصدَه.

فدنا مطرقاً، ثم مسح اللعاب السائل على ذقن السلطان وقال:

ـ شغلتني أمور الناس حتى عن نفسي.

ـ بل شغلتك الفرجاء.

والفرجاء في اللغة هي المرأة مفلوجة الثنايا، وهو معنى لم يقصده. أما المرأة التي قصدها فهي ظل النسيم.

ـ فسامحني يا مولاي.

ـ غضب عليك سلطانك، وسامحك أبوك.

ثم تسند وقام ودار وتكتك، وتردد وقع خطاه في الآفاق. وسأله:

ـ كم إصبعاً في يدك ؟

فعدها وقال:

ـ خمسٌ.

ـ فخذ منى خمس.

ثم وقف على رأسه وقال له:

ـ يا عقرب يا ابن العقرب؛ الغفلة خطوة ولكنها هاوية تبتلع كل أيام الحريص، فأحذر أن تغفل بالملذات عن الشدائد.

يا عقرب يا ابن العقرب؛ الغضب كلمه، لكنها تحرق كل دفاتر الحكمة.

يا عقرب يا ابن العقرب؛ الغرور نفخة جوف، لكن دخانها يعشى النظر وهو باب الفهم.

يا عقرب يا ابن العقرب؛ الولادة لحظة لكنها بداية حياة، والموت

fb/mashro3pdf

لحظة لكنه نهاية حياة، فاحرص علي أن تكـون خطواتـك بدايـات لا نهايات، فبذلك تكثر حيواتك.

يا عقرب يا ابن العقرب؛ إن الريح لا تحفـظ مواطئ الأقـدام علـى تراب ناعم، فاحفر خطاك على صخر لا تقدر على نحته الريح فيخلـد ذكرك، تك .. تك .. تك.

ـ تك.

ـ تك .. تك .. تك.

وسأله:

ـ كم إصبعاً في يدك الأخرى.

فعد أصابع اليسرى وقال:

ـ خمس.

ـ فخذ منى خميسة؛ الحياة ومضة، والموت غمضه، والملك أفعـال، والأفعال رجال، والرجال أحوال.

وكرر العقرب الصغير الكلام خلفه حتى حفظه، ثم كتبه على كـف من جلد وعلقها على صدره، بين جلده وثوبه.

fb/mashro3pdf

الغلباوى

في دار الخيال قدم أبو ربابة تمثيلية "الغلباوى" بعزف طويل على الوتر، وغنى:

ـ وكان فصيح ومليح

من أول الأيام

يقف كما الديك يصيح

في مجلس الحكام.

ثم انطفأت الأنوار في الصالة، وسطعت خلف شاشة القماش، ورفرفت حمامة الحب المجنحة على الشاشة إيذانا ببدء العرض، فضحك الشّبان، وانكسفت وجوه البنات: "هئ .. هئ.

وظهر ظل الولد الملقّب بالغلباوى، فتبختر بخطى قوية منتظمة، وقد فرد يديه وانبسطت العباءة على بدنه. ثم برز وجه الأميرة ظَل القَل بين أطواق الزهر، وظل يكبر حتى كاد يملأ الشاشة. أما ظل الغلباوى فتضاءل حتى لزم طرف الشاشة، فلم يعد يظهر منه غير أنف وجبين، وفم يتحرك بكلام على حافة المشهد:

ـ أعز الله ظل الجمال الغافي بين أطواق الزهر.

ـ من الفتى؟

ـ هو ابن العِجْلة يا أميرة.

ـ هه ؟!

رشّت البنات ماء الزهر على وجه الأميرة حتى أفاقت، ثم قيّدن

fb/mashro3pdf

الفتى، وأسلمن طرف الحبل إليها، فسحبته خلفها إلى القصر.

وفي القصر كانت حمامة الحب ترفرف على الشاشة، والفتى يتبع الأميرة من غرفة إلى غرفة، ويتلصص عليها في سريرها وحمّامها. وضبطته مرة فنهرته:

ـ عيب.

وغنى أبو ربابة:

ـ والقلب لو كان حجر

ينكسر

لو الجمال به غدر

والقدر

كتب على جبين الفتى ينقهر.

ترفرف الحمامة، والفتى يطرق الأبواب، فترده الوصيفات عن الدخول، ويهمسن للأميرة:

ـ الولد النونو، واقف ع الباب.

مرة دفع الباب ودفعنه، فخبط الخشب ضلوعه، وانكسر قلبه:

ـ آه.

سمعت الأميرة الآه فدمعت عيناها، وأطرقت: *"سلامتك من الآه"*.

وتهامست الوصيفات:

ـ نازل غضبان ع السلم، يطرقع بالقبقاب.

وفي ساعة غضبه دخل المطبخ، وسن السكين. وتطوح أبو ربابة على الوتر ليكمل الحكاية:

ـ ليه حرّموك يا جميل

fb/mashro3pdf

علىّ أنا وحدي

لأحرمك ع العيون

ما تنظرك بعدي.

ناح الوتر طويلا، والأضواء تخفت خلف الشاشة. ثم سطعت الأنوار مرة أخرى؛ كانت حمامة الحب ترفرف مذبوحة، وصوت الأميرة ينزف خلف الشاشة:

- صبي وغبي.

ملأت التأوهات الصالة؛ شهقت بنات، وتركن أنفسهن للفتيان يدعكون أيديهن ويرطبون شفاههن بالماء.

عاتب سلامة أبو ربابة:

- جعلت المسألة مسخرة، وظلمت الأميرة والفتى.

- حرفتنا صعبة يا سلامة؛ ساعة تسوق الربابة، وساعة تسوقك.

- الحكاية كان فيها سر.

فسأله ظل الفأر:

- كيف عرفت يا عم سلامة؟

- يا بنى العقل يقول ذلك.

وفي تلك الأيام كثر انشغال الناس بحكايات الغرام؛ خلف الشبابيك أغان، وبنات يطرزن المناديل بالمواعيد، وتحت الشرفات فتيان سهارى، يصفّرون ويهمسون: *"بس .. بس"*. حتى كلام العجوز تغير، كانت تدير وجهها للحائط، وتغنى لنفسها فى دار السراب:

- عم يا مراكبي

شايل سكر نبات

fb/mashro3pdf

حاسب دا المية سخنة

من دلع البنات.

ناولها ظل الفأر كأسا:

ـ على حسابي.

وسألها:

ـ لمن تغنين يا خالة؟

أخذت الكأس، وشتمته:

ـ ابعد يا نجس.

في الليل سارت على طريق النهر، كانت تتسّمع خبط مجاديف وخفق شراع: *"هيلا هوب.. هيلا"*.

أوقدت شمعة على شباك بيت الانتظار، وقالت للراقد بين الظلال: *"تأخرت"*. وأوقدت شمعة أخرى على شباك ضريح ظل الفل، وتوسلت إليها: *"ساعديه"*. ثم سحبت بيديها حبال الريح:

ـ هيلا هوب .. هيلا.

fb/mashro3pdf

نهريّة

حين عادت أم النور لم تجد زمبلك الزمان في البيت، كانت متعبة وجوعانة، لكنها لم تستطع الانتظار.

في النهار ذهبت للخدمة في بيت أحد الوجهاء، كنست وغسلت، وعادت بطعام وفير للعيد. لم تجد الولد فطلعت تبحث عنه:

ـ زمبلك الزمان.

لم يبرح الخوف قلبها منذ عادوا لها بصرّة الهدوم وكومة العظام.

ـ زمبلك الزمان.

الربيع مرّة أخرى؛ زهور تتفتح، رائحة طلع، وطيور في طوافها الأخير.

ـ زمبلك الزمان.

شفق معلق في الغرب، أشجار، وخيط هلال يشرئب خلف تل بعيد، وصبيان يبيعون الطراطير والقرون وأطواق الريش، ويترقبون انفلات الضحكة الأولى من بوق المنادى.

ـ زمبلك الزمان.

دمعت عيناها وهى تراه على شاطئ النهر، كان يلعب بالتروس، والناس يتفرّجون ويتعجبون. جرته من طوقه، واشتكت للناس:

ـ خوفي عليه عصر قلبي وهو ما زال موجوعا بفراق أبيه.

ـ اتركيه يكمل لعبته يا أم النور، الليلة ليلة عيد.

وسخرت نساء منها:

fb/mashro3pdf

ـ بالولد مسّ من أبيه يا أم النور.

ـ خير ولد لخير والد، وهل بين رجالكم من يفضل أبو النور.

مرّت بهما العجوز فناولت الولد قطعة سكر، وصاحت:

ـ اضحك يا منادى.

مع الشعاع الأخير ظهر شراع أبيض، طوى المراكبي شراعه، وجاهد تيار الماء بمجداف وحيد ليستقر بين القوارب الراسية. سكن مجدافه، وألقى مرساته، ثم احتضن شراعه المطوى، وقال للبنت:

ـ هنا مرسانا يا نهريّة.

ظل جلبابه يخفق في الريح، أما جسده فلم يتحرّك بعدها.

fb/mashro3pdf

ظلّ الماء

بعد تسعة أعوام كان زمبلك الزمان ما يزال يتذكر تفاصيل ما جرى في ذلك اليوم. كتب إلى صاحبه ظّل الماء يقول:

كان يوما من بواكير الربيع، والأرض تتأهب لعيد الضحك الذي يوافق انطلاق أول صوت من بوق المنادى. في العصر رصد العلماء اتجاهات الريح حول عمود المنادى، ثم زّمر كبيرهم، وصاح الصغار:

ـ العيد غدا .. هيه.

تسابق الناس إلى ساحة المرايا، يشترون الطراطير والقرون وتماثيل الفّخار.

ضاق صدري بالوحدة والجوع وأنا أنتظر أمي في الدار، فلما سمعت الزّمارة أخذت تروسي الخشبية وذهبت إلى شاطئ النهر.

لعبت بالتروس، وتجمع حولي صبيان يساعدونني. أدرت الترس الأكبر فانتقلت حركته إلى تروس أصغر، وتحركت من محاور التروس ذراعان وقدمان من خشب، فبدت لعبتي كأنها بنت تتحرك بإيقاع راقص متكرر.

انفلتت ضحكات من بوق المنادى، وتعجب تجار غرباء مما أفعل.

كانت قواربهم قد رست على شاطئ النهر في الظهيرة، وما زالت أشرعة أخرى تخفق على بعد.

طاف أصحاب النايات، وهم يتطوحون بالرايات، وينشدون:

ـ أنا مالي

fb/mashro3pdf

أنا مالي

أنا مالي..

وقال لي أحدهم:

ـ اترك ما أنت فيه من لعب واتبعنا يـا ولـد. أغلـق جفونـك تبصـر بعين قلبك، وتدرك في ذاتك ما لا تدركه الأنظار حولك.

تشاغلت عن كلامه باللعب، فأنا أحب سماع الناي لكنـني أخشـى أن اغلق عيني، فالذئاب التي ترصدت أبى ذات يوم خلف التـلال مـا زالت تكمن في العتـمة، وحين أغمض عيـني أسمعهـا تصيـح: "عـو.. عو".

بعد ذلك انشغل الناس عن كل شـئ بـالمركب ذي الشـراع الأبيـض الذي رسا مع الشعاع الأخير. أنت تذكر كل ذلـك يـا سـارق الشـراع، لكنك لـم تـمكث معنـا لتشـهد جـمال نهريـة الـذي خطـف قلـوب الناس، واخترت أن تنسل هاربا بالمركب.

العجيب يا صاحبي أنني حين أتذكر ما جرى في ذلك المساء، أرى فيه إشارات كثيرة لأشياء جـرت بعـد ذلـك. وحتـى لا أتركـك تخمـن كثيرا أقول لك أن أمي تزوجت ظل النار الحداد، هل تذكره؟

رأيته أول مرة في ذلك المساء، على وجهه آثـار دخـان، وفي عينيـه حمرة نار. تأمل تروسي الخشبية وأسنانها المتآكلة، وقال:

ـ لو شئت صنعت لك تروسا من حديد.

نسيت كلامه، لكنه زارنا بعد ذلك. طـرق البـاب ليـلا بيـد خشـنة وصوت أجش:

ـ يا أهل النور.

fb/mashro3pdf

أهداني ترسا فردته أمي إليه شاكرة، وقالت:

ـ دعنا في حالنا يا رجل؛ أنا امرأة وحيدة، ودخانك لا يخفي على جيراني.

ـ كلام الناس لا ينفد.

ـ لا يكون دخان بغير نار.

ـ ولا يكون نور بغير نار، فكّري يا امرأة.

لم أفهم كلامه، لكن يبدو أن أمي ظلت تفكر في الكلام طوال تسعة أعوام حتى وجدت بابا لفهمه، وأخيرا قالت لي:

ـ تعبت من الخدمة، سأتزوجه.

الآن بعنا البيت، وانتقلنا إلى دار ظَل النار خلف ساحة المرايا. أجلس أحيانا في دكانه، أرقبه وهو يطرق الحديد المحمى على السندان بيسراه القوية ويصنع لي التروس. تعلق كرات من دخانه بشاربي ولحيتي، يمسحها بيده فيزيد وجهي سوادا، يضحك.

كبر وتعب، لكن مازالت في يسراه قوة يخشع لها الحديد. يرفض أن أساعده في الأعمال العسيرة. بتروسه صنعت أشياء كثيرة ستتعجب لها عندما تعود.

طالت غيبتك يا ظَل الماء، لكن الجميع هنا يتذكرونك. من يستطيع أن ينسى ما فعلته في ذلك المساء. كان الناس على الشاطئ منشغلين بالجميلة نهرية التي انشق عنها النهر ليلة العيد، آنذاك تسللت أنت إلى المركب ذي الشراع الأبيض، رفعت المرساة، وتركته ينساب مع التيار لتهرب به إلى حيث جاء.

أسأل عنك التجار الغرباء، فيحدثني بعضهم عن شاب باسمك

fb/mashro3pdf

وصفاتك، يضفر شعر رأسه ولحيته ويعصب جبينه بمنديل أحمر، يقف عند ملتقى النهر العذب بالبحر المالح، على مركبه رايات وبيارق، ومعه رجال ذوو بأس يفرضون الإتاوات على العابرين.

ويقول بعضهم عنك كلاما آخر.

كتبت إليك رسائل كثيرة، أعطيتها للتجار الغرباء، ولا جواب حتى الآن. اسأل نفسي أحيانا: *"ترى أهو ظل الماء الذي أعرفه؟"*.

لو كنت أنت صاحبي الذي عرفته في أيام الطفولة، ورأيته يغافل الجميع على الشاطئ ويهرب بالمركب ذي الشراع الأبيض، لو كنت أنت فدعني أحدثك عن صاحبنا ظل التراب الذي كان يبيع البخت في ساحة المرايا، تذكره بالتأكيد.

هو الآن يرفض أن نناديه باسم ظل التراب، يغضب ويضرب الجدار بقبضته في دار السراب، يصيح، ويتطوح:

ـ اسمي ظل الذهب.

يمضي أول النهار عند تل الرمال خلف ساحة المرايا، يحفر باحثا عن عروق ذهب في الأرض. اشترى فأسا وجاروفا من ظل النار، وما زال مدينا له ببعض الثمن. يتفادى المرور أمام دكانه حتى لا يطالبه بالدين، أما حين يعثر على صخرة، ويتوهم فيها بريق الذهب، فانه يحملها إلى الدكان، فيلقيها أمام ظل النار، ويصيح:

ـ الآن ستأخذ حقك وزيادة.

ـ كيف؟

ـ هذه الصخرة أول العرق الذهبي في رمال التلال.

يضحك ظل النار، أما هو فيجلس أمام الدكان، يفتت الصخرة،

fb/mashro3pdf

ويطحنها بأثقال الحديد، وقد يشغله ذلك اكثر من يوم. يضع شيئا مما طحن في جاروف، ويقول لظل النار:

ـ ضعه في النار وسترى.

أحيانا تلمع ذرات، وتبرق صفرة في اللهب.

ـ ماذا ترى؟

ـ هو تراب يا ظل التراب.

ـ وهل يلمع التراب هكذا.

ـ قد تكون فيه ذرات من ذهب، لكن كيف تفصل هذا عن ذاك؟

تشغله المسألة، وقد تشغلني وتشغل ظل النار أيضا.

ـ لو وضعنا تراب الذهب في الماء لرسبت الذرات اللماعة الثقيلة في القاع تحت التراب.

يجرّب.

يغلبه التعب واليأس، فينام في مكانه. يشم رائحة الطعام في نومه، فيصحو ليأكل معنا، ثم يحمل ترابه في صّرة، ويمضى وهو يقول:

ـ هناك طريقة ما بالتأكيد.

ذات ليلة في دار السراب ضرب الجدار فانكسر الكأس ونزفت يده، لم يهتم، ظل يتحدث عن عروق الذهب في باطن الرمال، وقال لنهرية:

ـ ذات يوم سأصنع لك بيدي ثوبا من الذهب لم تلبس مثله أميرة ولا رأت عين، سيمشى ملوك الأرض في عرسك مطرقين، يرفعون طرف ثوبك، ويتعجبون من النعمة.

شاع أمره حتى صار فكاهة بين الناس، يسألونه فيحدثهم عن

fb/mashro3pdf

عروق الذهب ويقول:

ـ لابد من طريقة.

مرة دّله أحد التجار على الطريق:

ـ لابد لك من الزئبق.

ـ هه؟

ـ الزئبق، مغناطيس الذهب. وهو سائل سحري ثقيل كأنه فضة سائلة، تخلطه بتراب الذهب فيمتزج بذرات المعدن الثمين وينأى عن الشوائب، ثم تضعه على النار فيتبخر الزئبق، ويخلص لك الذهب.

ـ الزئبق؟!

ـ لا شئ غيره.

ـ وأين أجده؟

ـ يأتي به تجار من بلاد بعيدة.

من يومها وهو يسأل التجار الغرباء عن الزئبق، ويوصيهم بإحضاره:

ـ بأي سعر.

وما زال ينتظر.

هو الآن يشرب بالدين، ويأكل بالدين، ولا يغّير ثوبه. يحرس السرداب الطويل الذي حفره في باطن التل، ينام في جوفه شتاء وعلى مدخله في الصيف، ولا يخاف الذئاب؛ ألفها وألفته. يقول أنها كانت تحرس كنزه حتى ظهور أوانه. فلما عرفته فرحت به وأسلمته الوديعة.

أحيانا أراه في دار السراب، يمر أمام الباب، ينظر ويتلكأ فأدعوه

fb/mashro3pdf

إلى كأس. يشرب وهو يرنو إلى نهرية، ويقول لي:

ـ مهرها عندي يا صاحبي.

أحيانا أراه على شاطئ النهر، يعرض بضاعته على التجار الغرباء، ويطلب منهم الزئبق:

ـ بأي ثمن.

لو فكرت أن تعود إلينا ذات يوم يا ظلّ الماء؛ احضر معك شيئا من هذا الزئبق لصديقنا ظلّ التراب.

أكتب إليك دون أن أتيقن إن كنت أنت صاحبي ظل الماء الذى عرفته وعرفني أيام الطفولة أم لا. لكن أيا من تكون؛ لتكن رسائلي رسل ودي إليك، أيها الواقف عند ملتقى الماء بالماء، تبرق عيناك في تقلبات الفصول، وتخشع أمام فلكك أشرعة العابرين.

والسلام.

fb/mashro3pdf

مرآة دَعْد

تتأمل وجهها في المرآة الكبيرة وهي تتقلّب على السرير، وتهمس لنفسها: *"لم يتغير شئ؛ الوجه على حاله، والبدن ما زال بدن الصبية التي خطفت بصره في ذلك اليوم"*.

تذكر أول مرة؛ رآها فارتجفت يده، واندلق ماء الإبريق على صدره. سأل أباها:

- من؟

- هي ابنتي يا سيدي.

من أول الزمان وعينه عليها، كثرت زياراته، وكثر عطشه. كان أبوها يرتبك حين يسمع جلبة حراسه ودقات يده على الباب:

- العفو يا سيدي؛ لو أرسلت إلى لجئتك في أي مكان تريد.

- قصدت تمشية رجلي، والشرب من إبريقك يا رَقاص.

- لو أمرني سيدي لحملته إلى قصره على رأسي.

- لكل شئ أوان، والأمر بيد العقرب الكبير.

الرقاص لم يفهم الإشارة، هي فهمت. كانت تتلصص عليه من خلف الأبواب، وتراقب نظراته الشاردة في أرجاء البيت، كأنه يبحث عن طائر خطف قلبه وانفلت من يده. يشرب من يدها، تسمع دقات قلبه، ونفخ أنفاسه في حلق الإبريق.

- بالهناء والشفاء.

ولما ذاق طعم البسبوسة لحس أصابعه ومَدد رجليه:

fb/mashro3pdf

ـ حلاوتها أدهشت لساني.

ـ بالهناء والشفاء.

ليلة البسبوسة قام على عجل، وقال للرّقاص:

ـ لا تنم حتى أعود.

طلع ونزل، عاد في آخر الليل وطعم البسبوسة ما يزال في فمه:

ـ بَلل ريقي يا رقاص.

ـ الإبريق يا بنت.

فوضع الإبريق على ركبته، وسأله:

ـ إذا أمر العقرب الكبير بشيء، هل تقدر أن تخالفه؟

ـ أمره وأمرك نافذ ولو على رقبتي.

ـ الليلة يا رقاص أذن لي سلطاني أن آخذ إبريقك.

فتحيّر الرجل في فهم الكلام، لكنه قال:

ـ أحمله على رأسي إلى قصرك يا سيدي.

ـ بشرط.

ـ مرني يا سيدي.

أمسك يد ظلّ النسيم، وبسط راحتها على الإبريق:

ـ لا آخذه إلا ومعه اليد التي تحمله وتسقيني.

لم يتغيّر شيء من جمالها لكن قلبها تغيّر عليه، هو السبب، كلمة صغيرة قالها من سنين ما زالت تزّن في أذنها، لم يبددها تعاقب الفصول.

في ذلك العيد البعيد نزلت للطواف معه وسط الأمراء والحرّاس، حدّثه الرقاص عن بنت حملها مركب ذو شراع أبيض، ألقى بها وبجثة مّلاح عجوز على الشاطئ. قال له:

fb/mashro3pdf

ـ أمر غريب يا سيدي؛ الملاح وصل الشاطئ ميتا، والمركب اختفى، أما البنت فتقول عنها امرأة عجوز أنها آخر بنات زوبة.

ـ أين هي؟

ـ أخذتها العجوز إلى دار السراب، وقالت للناس: *"هي ابنتي، ضاعت مني يوم حرب الكافوري مع البناتْ."*

بعد أن طاف الموكب في ساحة المرايا، تمهل العقرب الصغير أمام دار السراب، وقال للرقاص:

ـ هات البنت.

قبّلت العجوز يده، وتوسّلت:

ـ الكافوري سامح وأذن برجوعها، فماذا تريد أنت؟

طلعت البنت، رأتها ظل النسيم بنتا مثل كل البنات، أما العقرب فخشع وتمتم:

ـ تبارك الخلّاق.

من يومها تغيّر قلبها عليه.

سألته بعد الغذاء:

ـ أتراها أجمل مني؟

لم يرد.

وهي تناوله الإبريق ارتجفت يدها فوقع وانكسر بزبوزه، من يومها تغيّر طعم الماء في فمه.

يغيب عن قصره أغلب الليالي، يتبعه حارس من رجالها دون علم منه. تعرف انه يدور حول دار السراب، ويتلصص على البنت من فرجات الأبواب والشبابيك، ثم يدخل بيت المرايا في آخر الليل،

fb/mashro3pdf

يخلع ملابسه، ويتطوح عاريا بين كسرات المرايا التي تغطى قبة البيت وجدرانه وهو يصيح:

ـ تبارك الخلّاق.

الآن يشيخ العقرب الصغير، يخف عقله وترتجف مفاصله. يعود آخر الليل مطرقا متلعثما، لم تسأله مرة واحدة أين كان. هو كان يقول:

ـ لا يهدأ قلبي حتى اطمئن بنفسي على الشعب والأرض، آه ما أشق الحمل على أبي.

يشيخ، وهى صامدة في جمالها الأبدي، لم يتغير شيء. هل نسيها الزمان، أم أن المرآة تخدعها كما خدعت دعْد في الزمان القديم؟

هي المرآة نفسها، أهداها إليها حموها العقرب الكبير يوم زفافها، وقال لها:

ـ مرآة دعْد تجلب السعد.

فظّللت ابتسامتها براحتيها:

ـ تجلب السعد؟!

ـ بثلاثة شروط.

ـ إيه؟

فدار في الديوان وتكتك، وتردد وقع خطاه في الآفاق:

ـ هي للنظر فقط؛ فلا تكلميها ولا تسمعي منها، فان كلام المرايا يخطف العقل ويضعف القدرة.

ـ إيه.

ـ للمرايا أبواب، فإن انفتح بابها أمامك فلا تدخليه؛ فكل من

fb/mashro3pdf

دخل تاه في سراديب البَلور.

ـ إيه.

ـ واعلمي أن المرايا إن تقابلت اضطربت فيها الأشكال فتعددت وتبددت؛ فلا تجلسي بين مرآتين، فيتعدد رسمك، ويتبدد.

فلما أتم كلماته مسح رأسها ورأس ولده، وقال لها:

ـ ذَكريه.

ثم أطرق وسكت، فانصرفت مع عريسها من الديوان، ونزلا سلم القصر، يتبعهما دَف وناي، وخادمان يحملان المرآة، وأمامهما الرّقاص بالإبريق على رأسه.

fb/mashro3pdf

شرفة الشتاء

كان شعره الكثيف يبرز من بين مزق ثوبه البالي، واللعاب يقطر على لحيته. تسند على الجدار وطاف بشرفات الفصول، وحين بلغ شرفة الشتاء أكل من زهور الحوض، ثم مّد يده للسحابة الماطرة فملأ راحتيه، وشرب واغتسل.

اتكأ بمرفقيه على السور، وتأمل ما يحدث على الأرض، شاهد كل شئ، ورأى ولده يدور حول القصر ويناجيه، لكنه حين أصغى لم يسمع.

ثم دار في الديوان وتكتك، وأنشد لنفسه: *"سلام على العقرب الكبير، الذي بنفسه مسرة نفسه، وبأمره مطلع شمسه، غالب كل شئ فغلب، لكن الزمان غلبه، أهاه"*.

ولما أتم النشيد جلس على الكرسي، وأطرق ينتظر.

كان سلامة قد صعد إلى برج القصر في الصباح. في طريقه رأى العقرب الصغير يدور حول القصر. كان مطرقا واهنا وقد شابت رموشه ونحلت عظامه، فعابثة سلامة وشد تكة سرواله، وغنى له:

ـ يا هل ترى يا سلامة

دا صقر وللا حمامة..

فضحك العقرب:

ـ هئ .. هئ، بل حمامة ونتفوا ريشها يا سلامة.

ـ لماذا لا تصعد يا عقرب؟

ـ كيف والقصر يعلو ويبعد، رجلاي يبست عروقهما، وسلمه يزداد

fb/mashro3pdf

طولا، سبعة أدوار يا سلامة، وبين كل دور ودور سفر.

وتشكّى من حاله:

ـ منذ زمن لا أسمع خطاه، سنون طوال. ترى أشاخت أذناي، أم تعبت رجلاه وانقطع خطوه في تعاقب الفصول؟

رفع وجهه وظلل عينيه محاولا أن يراه في شرفات القصر، فلما عجز بصره وتعبت عيناه توسّل:

ـ نظرة.

أخرج سلامة ربطة المفاتيح وفتح، تشبث العقرب الصغير بكم جلبابه:

ـ إلى أين؟

ـ طالع.

ـ مكلّف أنت أم مأذون؟

بلع سلامة لسانه وغربت عيناه.

على الباب خيوط عناكب، وفوق الشّراعة حمامة راقدة على بيض، خافت فطارت وخبطت بجناحيها في فضاء الممر المعتم الطويل.

وقف العقرب على حافة العتمة، وتوّسل:

ـ قل له: *"ولدك تحت، تعبان وقلبه مشغول."*

طلع، دخل برج القصر، وقلّب في دفاتر الديوان؛ قرأ فتذكّر ما جرى وما سيكون.

طاف بشرفات الفصول، ثم دخل الديوان. كان العقرب الكبير جالسا على الكرسي، رأس مائل على كتف، وعينان شاخصتان. حدّث نفسه: *"ما زال فيهما بصر."*

fb/mashro3pdf

حَرك وجهه بيده فتقلّبت العينان، ثم سقطت ورقة ملامحه وانكشف تحتها وجه العقرب الصغير. تعّجب: *"ألم أره تحت!"* نزل.

كان العقرب الصغير ما يزال أمام الباب، يسعل وتدمع عيناه. تعّجب سلامة: *"ألم أره فوق!"*

بلع لسانه ومضى والعقرب يتبعه عن بعد، يجّر ركبتيه ويتعّثر في أحجار الطريق.

غروب ونسيم بارد، وشراع يخفق في النهر. تَأمل سلامة غسق الشتاء، وأصغى لصوت غناء يهب من جوف المشهد، ثم التفت إلى العقرب الذي يتبعه، ونهره:

ـ عيب يا عقرب؛ أنت الآن سلطان، فاذهب لحالك.

fb/mashro3pdf

راعي الذئاب

كان يوم جلوس العقرب الصغير مطيرا شحيح الضوء، تلاحقت في سمائه سحب ثقيلة، رعدت وبرقت، وغطّى صوتها على صياح العساكر في ساحة النار:

ـ أعزّ الله ظلّ العقرب الصغير.

برد وطرقات خالية وأبواب موصدة، والريح تنفذ من حلق عمود المنادى مَرة بصوت ضحك وأخرى بصوت نواح. سمع الناس الطبل والزمر من خلف الشبابيك فعرفوا:

ـ مات العقرب الكبير، جلس العقرب الصغير.

تفتّحت الأبواب، وهرول الناس في الشوارع، وصاح الصغار:

ـ ذهب، ذهب.

فرد الأمير الرّقاص مظلته فوق رأس السلطان، وقال:

ـ عهدك عهد سعد، والمطر بشارة ووعد.

صمد الموكب في وجه الشتاء حتى اقترب من ساحة المرايا، كانت خطى البغال والعساكر تنزلق في الوحل، والسلطان بين أمرائه في تمام زينته ونياشينه، على يمينه ولده البكر مفتاح، وعلى يساره زوجته ظل النسيم، وأمام الركب طبلة وزمّارة وخادم يرّش حبات الذهب.

كان المطر يشتد حين اقترب ظل التراب تتبعه ذئاب كثيرة. اقترب محاذرا حتى اطمأن قلبه، ثم هرول بخطى منزلقة يزاحم الباحثين عن الذهب في الوحل. رأى الناس ذئابه ففزعوا، واضطرب الأمير مفتاح

fb/mashro3pdf

حتى كاد يسقط من فوق البغل، فصاح الرّقاص في العساكر:

ـ قف.

لم يعثر ظل التراب إلا على حبة من الذهب، لفّها في منديل وعقده حول عنقه، ثم خلع جلبابه، وعقد الكمين على طرفه فسّده من جهة الطوق، وعبّأه من الجهة الأخرى بالوحل الذي انتثرت فيه حبّات الذهب.

راقبه السلطان حتى انتهى، وناداه:

ـ أنت يا راعي الذئاب، تعال.

فدنا منه عاريا، حول رقبته منديل، وعلى ظهره صرّة الوحل، وذئابه تتبعه. أحاط به العساكر وصوبوا سهامهم إلى صدره. غطت ظل النسيم عينيها ونهرهم السلطان:

ـ لا ترّوعوا الفتى.

وسأله:

ـ من أنت؟

فمال الرّقاص على أذنه هامسا:

ـ هو ظل التراب.

أما الفتى فجاوبه:

ـ سميت نفسي ظلّ الذهب.

ـ وما هذه الذئاب.

ـ هم صحابي وحرّاس كنوزي المستورة، حرسوها من أول الزمان فلما رأوني عرفوني وأسلموني الوديعة.

ـ أي كنوز؟!

fb/mashro3pdf

ـ عروق ذهب في باطن التل.

ـ أين؟

ـ هناك خلف ساحة المرايا.

ـ فما حاجتك إلى ذهبنا؟!

ـ ما زالت كنوزي رمالا، ولو اشتريت الزئبق مغناطيس الذهب لاستطعت آن أحوّل رمالي كلها إلي ذهب.

ـ هه؟!

فتبَسم الرّقاص ومال على أذن السلطان:

ـ هو كلام مخبول يا مولاي فلا تشغل بالك.

ثم أشار للفتى فانصرف، وصرة الوحل تقطر علي ظهره، وذئابه تتبعه.

أطرق السلطان يفكر في الكلام، وصاح الرقاص في العساكر:

ـ إلي الأمام سر.

فلما زاد المطر واضطربت الخطى، مال السلطان على أذن الرّقاص وقال:

ـ لا تثقل على جنودي وشعبي في مثل هذا اليوم يا رّقاص، عد بالجند، أما أنا فسأستريح ساعة في بيت المرايا حتى تمسك السماء ماءها.

وخشع الأمراء والجند للأمر، واختلط هتافهم بالرعد:

ـ أعز الله ظل العقرب الصغير.

وتمهل الرقاص حتى انفرد بالسلطان، وقال له:

ـ جرت العادة في مثل هذا اليوم أن يجلس السلطان في الديوان؛

fb/mashro3pdf

ويصعد إليه الأمراء للتهاني.

ـ مفاصلي تخلعت، والقصر عال وسلمه طويل يا رقاص؛ طلوعه صعب وسلالمه سفر؛ فانتظر حتى يزول البرد، وتتجمع بعض القوة في عظامي.

ـ هه؟

ـ لا هه ولا مه، كلامي أمر لا مشورة.

وقال له:

ـ أنت الحركة والبركة يا رقاص، فصرّف الأمور بنفسك.

فخشع الرقاص:

ـ الأمر للعقرب الصغير.

واصل السلطان طريقه إلي بيت المرايا. ترّجل وأسلم لجام البغل إلي حارس البيت. دخل، وتشتت بصره في المرايا.

fb/mashro3pdf

عروق الذّهب

نجوم وليل ربيع، ونسمات تتقلّب ضاحكة في بوق المنـادي. جلس الفتى أمام فوّهة سرداب الرمل يحصى حَبات الذهب التي جـمعها في منديله السماوي، وغنّى لها؛ كان يحاول أن ينظم أفكاره:

ـ نجـمة الذهب

التي لا تشبهها نجـمة في السماء

دليل الحيران

وأمان الخائف

تؤلّف ذئاب الطريق.

وقف العقرب على رأسه وقال له:

ـ لا يألف الذئب إلا الذئب.

خاف، فنطّ من مكانه:

ـ من أنت؟

ـ السلطان يا بني.

ـ السلطان!

ـ العقرب.

ـ العقرب فوق.

ـ العقرب تحت.

ضرب الأرض بقدمه، وعانده:

ـ فوق.

fb/mashro3pdf

ـ تحت.

لَف الفتى منديله على نجمة الذهب وعقده حول عنقه، ثم تأمل صاحب النياشين في ضوء نجوم السماء، وقال لنفسه: *"يشبهه"*.

وسأله:

ـ ماذا تريد يا عم؟

ـ عطشان.

شرب وشكر، ووضع القَلة على الرمل. جلس، ولمعت نياشينه في ضوء نجوم السماء. جلس الفتى أمامه، وربضت الذئاب على بعد.

ـ أظنك راعي الذئاب.

ـ أبى سماني ظل التراب، وأسميت نفسي ظَل الذهب، وأسماني السلطان راعي الذئاب.

ـ فما تفعل هنا يا راعي الذئاب؟

ـ لو كنت أنت السلطان لما سألتني، السلطان يعرف أنني أحرس كنوزي، أخبرته بذلك يوم جلوسه.

ـ وأين كنوزك؟

ـ هنا؛ عروق ذهب تمتد في سراديب الأرض.

غَرَف الرمال براحته، ثم تركها تتسرب من بين أصابعه:

ـ لا ترى الرمال ذهبا إلا عين حكيم؛ فمن علّمك الحكمة؟

ـ أخذتها من قول الحكيم في زمانه: *"لكل شئ ظَل والتراب ظَل الذهب"*. ظللت أردد هذا القول على الناس وأنا أبيع البخت في ساحة المرايا، وذات مَرة انزلقت العبارة من لساني واستقرت في قلبي.

أطرق يقلب كلام الفتى في رأسه:

fb/mashro3pdf

ـ وجدته؟

زحف الفتى على مقعدته وشّده من كمه. زحف خلفه، وتبعتهما الذئاب حتى مدخل السرداب.

ـ انظر.

زحف، وتعّثر في المقطف والجاروف:

ـ عتمة يا بنى.

ـ لو دققت لرأيت الذّرات الصفر تلمع في الظلمة.

ـ افتح جفوني أم أغلقها؟

ـ بالنسبة لك جرب، بالنسبة لي هي تلمع في الحالتين.

ترددت أنفاسهما في عتمة السرداب، وقال الفتى وهو يوغل زاحفا على أربع:

ـ هذا السرداب طريقي.

ـ إلى أين؟

ـ الجمال.

ـ الذهب طريق القوة، أما الجمال فانك لا تدركه إلا بعد أن تطرح الذهب تحت اقدامك.

رن صوت الفتى في آخر السرداب:

ـ بل هو شارة العاشق ونياشينه، به يستدل الجمال على من يعشقه.

عتمة وحر، استدار ورجع، كان يلهث، وكانت الذئاب رابضة عند فوهة السرداب. انكمش وناداه:

ـ أنت يا راعي الذئاب، ابعدها.

fb/mashro3pdf

ولما خرجا عاد الفتى يقول:

ـ هذا السرداب طريقي، هو لي وحدي.

ـ صح؛ طريقك وحدك، والخلائق طرائق.

نفض الرمال عن عباءته، وقال للفتى:

ـ الليلة أكرمت سلطانك بشربة ماء، فأنت ضيفي ما بقى من الليل.

ـ بأي شئ يرد لي السلطان كرمي؟

ـ كما سقيتني أسقيك.

ـ ماء بماء!

ـ بل شراب السراب يا فتى.

ـ الليلة؟

ـ وكل ليلة إن أردت.

أضواء قناديل تتقلّب في مرايا الساحة، ونور وهّاج ينبثق من باب دار السراب المفتوح على ليل الربيع، وأخلاط غناء تهب من جوف المشهد.

كان يجّر رجليه متساندا على الفتى. أشار إلى طاقة النور، ومال على أذنه هامسا:

ـ هنا تلتقي الطرق، وتنتهي خطى الخلائق.

كانت نهرّية تحت القناديل الساطعة تدق الوتر، وغناؤها ينبثق من انكسار الشعاع على الشعاع. حين رأتهما سكتت، وتأرجحت نظراتها بين صاحب النياشين وعيون الفتى الواقف خلفه. ضحك الناس:

ـ السلطان حضرنا.

وعلا صياح ظّل الفأر فوق ضحكهم وهو يحييه:

fb/mashro3pdf

ـ بل هو الشبه، سلام للشبه.

عزفت البنت السلام الكبير، أما سلامة فبلع لسانه، وناول صاحب النياشين كأسا ترفرف في بلّوره أجنحة طيور سابحة صوب الحافة.

شرب، وعقد طرفي العباءة على بطنه، وتطوح بين الناس:

ـ سلطان زماني أنا

سلطان زماني

يا بنت هاتى بوسه

إن كنت مصدقاني.

وفي القصر الكبير الخالي، كانت العناكب تدق أوتاد الحرير في أركان العتمة، وتنسج خيوطها وتنشد: *"أرجوحة للصغير، آخر عنقود العقارب، هيه .. هيه. المكان مكانه، والزمان زمانه، السلطان بين خَلانه، هيه .. هيه. السلام عليه، الذي قلبه بين شفتيه، وذهبه تحت رجليه، هيه .. هيه.*

fb/mashro3pdf

الكافوري

ظلت حتى الضحى تتقلب في دفء فراشها وتتأمل وجهها في المرآة. الشتاء في آخره، وهي منذ يوم الجلوس لم تخرج ولم تفتح بابها للزيارة، شهور وهي تتأمل جمالها وتتنهد: *"لم يتغير شئ"*..

ظلت هكذا حتى دق بابها الأمير الرقاص ومعه حفيده وولدها البكر مفتاح. فتحت وسألته:

- طلع؟

- لا طلع ولا نزل، لكن إذا سألتك نساء الأمراء قولي لهن: *"هو فوق، طلع وجلس"*.

- فأين هو الآن؟

- ساعة في بيت الانتظار وساعة في بيت المرايا، وساعة يسبح في النهر أو يمشي بين العامة في الأسواق، وساعة يغطس فلا نعرف على أي شاطئ رماه موج أفكاره.

- رَبما على شاطئها.

- من؟

انتبهت لوجود ولدها البكر مفتاح فأمرته بالانصراف، ثم جاوبت أباها:

- نهريّة.

أطرق وسكت. هو يعرف ما لا تعرف، وما يعرفه الناس أكثر.

منذ أيام والناس يضحكون على الكافوري في دار الخيال. يقدم أبو

fb/mashro3pdf

ربابة التمثيلية بغناء ماجن عن سلطان عجوز، تخلعت مفاصله، وانفرطت أسنانه..

ولا تباريه الأسود في الكَحة

ولا سحلفة عرجا في ضيق الخطاوى.

وهو على كبره يتلصّص ببصره الشحيح على المخادع. خلف الشبابيك قناديل صغيرة، وبنات يترقبن نظرات السلطان المتلصصة، يتمطين ويتقلبن، وترفس أقدامهن الأغطية، فيشّب السلطان على أطراف أصابعه..

يشّب ويبّرق

ويكح ويزيّق

ولا ينام الليل.

ثم تبدأ التمثيلية، ويندمج الناس مع ظلال الممثلين خلف الشاشة، فهم تارة يتأوهون مع غنج وحركات بنات الظلال، وتارة يضحكون على أفعال السلطان. وتنتهي التمثيلية والسلطان العجوز، يتعثر في أحجار الطريق، ومفاصله ترتجف من برد الليل، وأمامه فتى يصّب ويسقيه، ويغنى معه:

ـ يا شمس صبى النّور

في كأسك البّنور

واسقيني.

وصبّحى ع الورد:

"يجعل صباحك سعد

يا ناسيني".

fb/mashro3pdf

واقف بباب الجمال

أتأمل الأحوال

يا عيني.

يا صاحبة البستان

أنا كنت يوم سلطان

راعيني.

ثم يطلع الفجر، ويصيح أبو ربابة أمام شاشة القماش:

ـ كو كو.. كو.

رأى الرقاص التمثيلية بنفسه في دار الخيال، أخبره ظَل الفأر بما يجرى في الدار وقال له: *"مسخرة يا سيدي"*.

تنكّر ودخل، ثم استدعى أبو ربابة وحَقق معه بنفسه، وجلس ظَل الفأر يكتب كل كلمة.

ـ ماذا تعرض في دار الخيال يا رجل؟

ـ أعَز الله ظَلك يا سيدي، هي تمثيلية عن مولانا السلطان ابن العِجْلة الملقب بالكافوري، حتى لا ينسى الناس تاريخهم.

ـ لكن الكافوري لم يعَمر طويلا لتتخلّع مفاصله مثل السلطان الذي يراه الناس في تمثيليتك.

ـ حفظتك العتمة يا سيد الناس، مولانا السلطان الكافوري له المجد كانت به عنّة من طول جلوسه تحت شجرة الكافور، وهذه فكرة التمثيلية.

ـ لكن في التمثيلية مجون وخرق لا يليق ذكره عن سلطان حي ولا ميت.

fb/mashro3pdf

ـ الجمهور يريد ذلك يا سيدي، ولا ضرر منه. حديث المجون ينتهي بضحكة، أما غيرة فلا نعرف كيف ينتهي. والكافوري حفظته العتمة راقد في ضريحه، لا تزيد قدره كلمة ولا تنقصه كلمة، وإذا كان الأمر يضايقك؛ أوقف عرض التمثيلية.

بلع ريقه، وسأله قبل أن ينصرف:

ـ أمنعها يا سيدي؟

لم يجاوبه الرقاص، لكنه قال لنفسه: *"إن رأتها ظَل النسيم طار مَخها"*.

وقال لها في ذلك اليوم:

ـ لا تليق الغيرة بزوجة سلطان.

ـ ليست الغيرة يا أبى لكن أمره يحيرني؛ لا في عروقه قوة، ولا في البنت شئ غير كل البنات.

تأملت نفسها، ثم بسطت راحتيها على المرآة وسألتها:

ـ هل في الأرض من هي أجمل منى؟

وسألتها:

ـ هل تعرفين سَرها يا مرآة؟

غاصت نظراتها في المرآة، وتاهت في سراديب البلَور.

fb/mashro3pdf

بسْ بسْ .. نَوْ

نجوم وسحابة ربيع، وصبيان يعزفون على النايات ويتسولون. عبر ظَل الفأر على حافة المشهد الليلي فغنوا له عن بعد:

ـ بس بس .. نوْ

يا بس بس .. نو.

جروا واختبأوا. هو لم ينتبه، كان يترَنح متشبثا بطرف شاربه النحيل، ونظراته تتطوح صوب شعلة الحرية التي تتقلب نارها في قبضة الحكيم على مدخل ساحة النار. عبر القوس صوب قصور الأمراء، وقال لرئيس الدرك:

ـ فتّح عينك.

فحّياه، وتوارى في العتمة مفسحا له المشهد.

طرق الباب الخلفي، واشرأب يتسّمع الخطى فوق الممر المعشب، ولّما انفتح الباب سجد طويلا يقبل العتبة:

ـ حفظتك العتمة يا سيدة البلاد.

ـ ماذا تريد في هذا الليل يا ظّل الفأر؟

ـ لا أريد شيئا لنفسي، وهل أجرؤ أن ألمس عتبات سيدتي في مثل هذا الوقت إلا لأمر يخصها ولا يحتمل التأجيل.

ـ فهّمني.

ـ هو الشّبه يا سيدتي، يسعى في المجالس، ويقول للناس: *"أنا السلطان"*.

fb/mashro3pdf

ـ السلطان فوق، طلع وجلس؛ قل لهم ذلك.

ـ هذا ما أقوله؛ أقوله ويقوله رجالي في كل مكان.

ـ أين هو الآن؟

همّ بالكلام، لكن ضوءا انفلت من نافذة تتفتّح فأعشى عينيه وسدّ فمه. أومأ بأنفه وذقنه صوب الشباك هامسا:

ـ الأمير الصغير يا سيدتي.

سارت صوب الشباك، فلاطفت الولد، وقبلت طابع الحسن في ذقنه:

ـ نم يا مفتاح.

ـ أهو أبى السلطان؟

ـ لا، هذا أحد رجاله، أبوك فوق، سهران يدبّر الأمور.

ـ متى ينزل لأراه؟

ـ اصبر؛ في العيد نطلع له.

وفي تلك الليلة قال ظلّ الفأر للأميرة ظلّ النسيم:

ـ هو هناك في دار السراب، يرقص للبنت وهي تغني له: *"يا سلطان .. يا سلطان"*، والناس يضحكون؛ مسخرة يا سيدتي.

ـ نهرية؟

ـ هي يا سيدتي.

ـ ماذا يريد منها؟!

ـ الكلام كثير؛ بعضهم يقول هو عشق الجمال.

ـ تفو..

تعثّر في العتبة حتى كاد يسقط تحت أقدامها. سحبته من شاله

fb/mashro3pdf

صوب السلم الحجري الداخلي، جلست على أعلى درجة، وأقعى هو على الأرض في مرمى بصقتها.

ـ لماذا لم تخبر سيدك كبير الأمراء؟

ـ سيدي الأمير الرّقاص يعرف، هو يعرف ذلك وزيادة.

ـ وأنت ماذا فعلت؟

ـ سيدتي؛ ما أنا إلا موظف صغير يؤدى دوره من خلف ستار.

ـ فلماذا يدّس الصغير أنفه في أمور الكبار؟

ـ أظن لدى حلا.

ـ أنت؟!

بلع ريقه وأطرق، ظل يبلع ويطرق حتى نهرته:

ـ انطق.

ـ لا يبعد هذه البنت عن طريقه إلا رجل يحفظها في داره.

ـ فهمت؛ وأنت ذلك الرجل، تفو.

أطرق ومسح. هي نهضت، نزلت السلم وطلعت، نزلت وطلعت، ثم نزلت فجرّته من شاله إلى الخارج، وأغلقت الباب خلفه:

ـ اذهب، أخبر الناس في كل وقت وكل مكان أن السلطان فوق، أما ذاك فهو شبه، مجرد شبه. اذهب وأبلغني بكل همسة ولمسة يا ظّل الفأر الأجرب.

ـ والبنت؟

ـ لا تشغل نفسك بها؛ عريسها عندي.

ـ هه !

ـ وأبلغ رئيس الدرك أن يغلق عينه، ستجرى أمور غريبة هذه

fb/mashro3pdf

الأيام.

ـ هه !

ظل فترة يتأمل رأس ظلّه وهو يهتز ويسأل: "هه .. هه". أخرج زجاجة من جيبه فشرب وسقاه، وقال له:

ـ لو فهمت؛ فهمني.

وفي طريقه قال لرئيس الدرك:

ـ يا رئيس الدرك طاوعني، أغمض عينك هذه الأيام.

فتحيّر الرجل:

ـ يا سيدي، أفتحها كما أمرتني في ذهابك، أم أغمضها كما تأمرني الآن؟!

فكر على مهل، وجاوبه بلسان ثقيل:

ـ واحدة وواحدة، على مسئوليتي.

وفي تلك الليلة صمدت ظّل النسيم أمام المرآة تتأمل جمالها الذي لم تلمسه يد الزمان، فلما صاح ديك الفجر أقسمت، وتردد القسم في أطباق السماوات:

ـ بمشيئتي؛ أناسيدة البلاد، أحرّمك يا نهرّية على كل الرجال، حرمة الماء على النار.

fb/mashro3pdf

ظلّ الزئبق

باع ظلّ الذهب أكياس التراب بالجملة للصبيان بائعي البخت في ساحة المرايا، باع الواحد بقرش، وقال لهم:

ـ اليوم غير أمس، وغدا أغلى.

ـ حرام يا ظلّ التراب.

ـ لو وجدت الزئبق لحوّلت كل الرمال ذهبا، وما وجدتم حتى التراب لتبيعوه.

وغنّى لنفسه، كان يحاول أن ينظم أفكاره:

ـ ظلّ الذهب

أصفر أصفر

ماشي على الحيط يتبختر

رئيس على كل الألوان

باقي، وغيره يتغيّر

لّما يصّفر لها تصفر

لا يبقى أحمر ولا أخضر.

تجول في المساء ببصر شارد وصدر منفوخ، رآه ظلّ النار الحداد وهو يصفر ويكلم نفسه فناداه:

ـ إيه يا راعي الذئاب، أين أنت؟.

ـ ما زلت هناك. أوغل في باطن الأرض، وأمد سراديبي شرقا وغربا.

fb/mashro3pdf

تأمله بحنان:

ـ لدينا بقايا طعام، اجلس يا فتى، وجهك شاحب وعيناك غائرتان.

كان زمبلك الزمان أمام الدكان منشغلا بالتروس، تروس كثيرة متداخلة معلقة فوق عجلات، يحّرك أكبر التروس فتسرى الحركة إلي العجلات، وتمشى كتلة الحديد.

ـ تضّيع وقتك يا فتى.

ـ بل أصنع حصانا.

ـ حصان من حديد؟!

ـ إذا كسوت هذه التروس حديدا على شكل حصان، صارت حصانا يمشى على عجلات.

ـ عجيب، وكيف يدور الترس الكبير إذا غطيته بالحديد؟

ـ بالنابض.

ـ ال ... ؟!

ـ النابض؛ وهو شريط من صلب لّين تلفه حول نفسه على شكل لولب فيطاوعك مختزنا قوته، ثم تطلقه فينفرج، وفي انفراجه يحّرك محور الترس الكبير فيديره. صنعه ظلّ النار من خلطة جديدة من الحديد، وأطلق عليه اسمي؛ زمبلك. به يكتمل عملي.

تأمل حركة التروس وقال لصاحبه:

ـ حين أجد الزئبق وأحّول كل تلك التلال إلى ذهب سأهبك أحدها لتصنع لي من ذهبه حصانا.

ـ الذهب مرة أخرى!

fb/mashro3pdf

ـ الذهب إلى الأبد، الأصفر الخالد.

أدار ظّل النار ظهره للحديث، نفخ النار، وطرق الحديد حتى عجنه بضربات يسراه القوية، وهمس:

ـ قد لا تدرك صفرته إلا في وجوه الموتى.

الفتى لم يسمع، أكل ومضى على عجل:

ـ عندي موعد مع السلطان.

ركب حصان خياله وأسرع إلي دار السراب. سأل نهرية عن صاحب النياشين، ثم مد يده لها بصرّة المال:

ـ فلوسي كثيرة كما ترين، لكنني ضيفه وشرابي على حسابه.

كان ظل الفأر ينتظر وحيدا على طاولة، ينتف شعر حاجبيه من الضجر، وعينه على الباب. في الخارج يقهقه نسيم المساء في حلق عمود المنادى، فكر أن يحشو حلقه بالقش ليسكته، ويتخلص من ضحكاته التي تطارده في كل مكان.

قال لراعي الذئاب:

ـ صاحبك تأخر.

ـ السلطان؟

ـ بل الّشبه.

ـ هو سلطان؛ على صدره نياشين، وفي رقبته مفاتيح الحكم والحكمة؛ خمسة وخميسة.

ـ السلطان فوق، أما هو فمجرد شبه؛ شاراته ونياشينه ورق وصفيح.

ـ ليكن من يكون، من يجود على بذهبه ويسقيني كل ليلة فهو

fb/mashro3pdf

سلطان.

وعاد يلوّح للبنت بصّرة المال:

ـ مهرك عندي يا نهرية، كنوز وعرس مشهود، وحصان ذهبي يخب بنا في الأصائل على شاطئ النهر، وفي الماء غناء وعزف مزامير.

بلع ظل الفأر ريقه وأدار ظهره للكلام. العجوز نهرت الفتى الثرثار:

ـ ذهبك تراب يا شاطر، اشرب واسكت.

ركب حصان خياله وسكت، ولما دخل صاحب النياشين وقف يحييه، ورقص له:

ـ سلطان زماني أنا .. سلطان زماني.

وقال له:

ـ لا يصدقونني يا سلطان، فحدثهم أنت عما رأيت في سراديبي.

وذكّره بوعده:

ـ شرابي على حسابك.

كان ظّل الفأر مشغولا عن كل شئ بترقبه الطويل، ينتف شعر حاجبه وعينه على الباب.

حين دخل الغريب الملّثم نثر الذهب على الرؤوس فسكت الجميع، لسعت نظراته وجه ظّل الفأر فانسكب الشراب في عبه، واختلط صوته برنين الذهب المتساقط. وقف وأدى دوره:

ـ من أنت يا عم؟

ـ تاجر غريب، أبيع كل عجيب، ويسميني الناس ظل الزئبق.

تطوح كأنما من الدهشة:

fb/mashro3pdf

ـ ظل الزئبق!

وكررها بصوت أعلى:

ـ ظل الزئبق، أهو أنت؟!

كان ظل الذهب يزحف على بطنه باحثا عن قطع المعدن الأصفر الرّنان التي نثرها الغريب، صاح من بين الأقدام المتشابكة:

ـ ظل الزئبق!

ـ أنا هو.

قال صاحب النياشين:

ـ كأني رأيتك من قبل يا غريب.

ـ لا يعرفني في أرضكم إلا السلطان.

ـ أي سلطان؟!

ـ العقرب، الجالس فوق.

ـ العقرب تحت.

ـ فوق أيها العجوز؛ الليلة كنت ضيفه على العشاء، هو صاحبي، أكلت معه ونزلت، تركته في القصر، فوق.

ـ وأنا من أكون!

ـ أنت؛ من أنت؟

ضحك، أدار رأسه يتأمل نياشينه ويتعّجب:

ـ من أنا!

ثم أعادها على نفسه:

ـ صح؛ من أنا؟

قفز ظل الذهب بين صاحب النياشين والغريب، سّد فم صاحبه

fb/mashro3pdf

بيده، وسأل الغريب:

ـ تبيع الزئبق؟

ـ لا يبيعه غيري في الأرض.

ـ أريده.

ـ لكل شئ ثمن، والزئبق أغلى الأشياء.

فرد منديله:

ـ هذا كل مالي.

ـ كله لا يشترى قطرة.

أفرغ صاحب النياشين جيبه، ووضع ذهبا كثيرا على أقرب طاولة:

ـ أعط الفتى ما يريد.

تفحص الغريب المال، ثم كنس الطاولة بظهر يده فبعثر القطع الصفراء على الأرض:

ـ لا يشترى بوزنه ترابا.

ـ لماذا؟!

ـ مغشوش.

ـ مغشوش!!

ـ مثل نياشينك يا عم.

نهر ظل الفأر صاحب النياشين:

ـ اسكت أيها الشبه.

وتوسل للغريب الملثم:

ـ هذا الفتى يريد الزئبق، يشتريه بروحه إن أردت.

ـ أخشى أن تكون روحه مغشوشة مثل ذهب العجوز.

fb/mashro3pdf

ـ دَبرها بكرمك يا سيدي.

فكّر ودّبر، وقال:

ـ سأحضر له ما يريد مقابل طلب بسيط.

خطف ظلّ الذهب يده، قبلها ووضعها على رقبته:

ـ مرني يا سيدي.

ـ اصبر يا فتى؛ لكل وقت كلام، ولكل كلام وقت، وطلبي لـه أوان مخصوص.

ناوله الفتى صرّة المال.

ـ لا أطلب منك مالا.

ـ هو عربون اتفاق، خذه يا سيدي ليطمئن قلبي، واطلب بعد ذلـك ما تشاء.

شرب صاحب النياشين كأسه دفعة واحدة، وانصرف.

ـ إلي أين أيها الشبه؟.

ـ أبحث عن شخص يخبرني من أنا.

fb/mashro3pdf

الحب العسير

وفي تلك الليلة سجد الحسن للحسن.

دَق قلب، وتمتمت شفتان خلف اللثام:

ـ كيف تجتمع فواكه الصيف والشتاء على غصن واحد!

وخشعت نهرّية لنظرات الغريب:

ـ إذا كانت العينان تبوحان بكل هذا الحسن والحنان، فلماذا يحجب الجميل مفاتنه خلف لثام؟!

ـ أمام حسنك فلتتبرقع الشموس ولتحتجب الأقمار.

ـ نظرة واحدة يا غريب.

فلما كاشف الحسنُ الحسنَ ارتجفت الأوتار:

ـ آه.

ـ آه.

عاد الغريب إلي لثامه، وقال لسلامة:

ـ أريد هذه البنت.

ـ كيف؟!

ـ زوجة.

بلع سلامة لسانه وأدار ظهره للكلام، لكن السؤال ظل يصفر في جوفه: "*كيف .. كيف؟!*".

وتحوّل الغريب إلي العجوز:

ـ زوّجيني ابنتك يا خالة.

fb/mashro3pdf

ـ هي آخر بنات زوبة، فمن يقدر على مهرها؟

ـ مالي كثير، وإذا أعجبني شئ دفعت وزنه ذهبا.

ـ لكنك غريب، وأنا لا أحتمل فراقها.

ـ في النهار اشتريت دارا على شاطئ النهر، سيكون بيت عرسنا. الليلة نكتب، وفي الفجر أسافر وحدي لأحضر مالي وتجارتي، وأعود بعد أيام لأقيم بينكم.

ـ ما رأيك يا بنت؟

ولما رأتها ساكتة ضحكت، وفتحت فمها على آخره:

ـ أرني ذهبك.

صفق الغريب فدخل خادمان ملثمان يحملان صندوقا كبيرا، فتحه ونثر الذهب على الرؤوس، وقال لظلّ الفأر:

ـ احضر كاتب العقود.

ـ الآن آخر الليل، الصباح أحسن.

ـ وقتي ضيق؛ في الفجر أسافر لأرتب أموري.

ـ أجّل العقد لحين عودتك.

ـ لا أستطيع أن أرتب أموري على مجرد وعد.

ـ كاتب العقود نائم الآن، الليل في آخره.

ـ ما عليك إلا البلاغ يا ظلّ الفأر الأجرب، اذهب واخبر الرجل أنني سأملأ عمامته ذهبا.

وجاء الرجل يتعثر في ذيل عباءته، فملأ الغريب عمامته ذهبا وقال له:

ـ اكتب في العقد أنه زواج لا فراق فيه، وإذا سبق الموت إلي واحد لا

fb/mashro3pdf

يحق للآخر الزواج بغيره.

ـ هذا الشرط حرام في شرعنا يا غريب.

ـ العقد شريعة المتعاقدين يا مولانا، وفي بلاد أخـرى يدفنـون المـرأة حية مع زوجها إذا مات قبلها.

ـ إذا هي موافقة نكتب، لكن ليوقع شاهدان على ذلك.

وّقع ظّل الفأر، أما ظل الذهب فأسند ظهـره إلي حـائط، وارتجفـت حنجرته:

ـ إلا أنا.

ـ بل أنت ولا أحد غيرك، هذا هو طلبي المؤجل.

تعثرت نظراته بين نهرية والغريب الملثم.

ـ أنا؟!

ـ إذا كنت تريد الزئبق وّقع.

وّقع، وتدّلى فكه:

ـ أخذت أغلى ثـمـن.

ـ الزئبق أغلى الأشياء، هو مغناطيس الذهب، ومفتاح الكنوز.

ـ من أنت؟!.

ـ أنا ظل الزئبق.

ظل سلامة صامتا، بلع لسانه، وأدار ظهره للمشهد.

fb/mashro3pdf

سبعين سؤال

جيبه خال من المال. كان يسعى صوب ساحة النار حين رآه رئيس الدرك، ففتح عينه وبرز له من تحت قوس الحرّية:

ـ ممنوع.

ـ من منعه؟!

ـ السلطان.

ـ أي سلطان؟!

ـ العقرب، حفظته العتمة.

أشار إلي نياشينه وسأله:

ـ وأنا من أكون؟!

أغمض رئيس الدرك عينه:

ـ ما أدراني، اسأل شيخ حارتك.

ثم لوّح بالسيف:

ـ ممنوع.

في اليوم الثاني ذهب إلي بيت المرايا، سد الحارس طريقه إلي الباب:

ـ ممنوع.

عاد إلي قوس الحرّية، أسند ظهره إلي دعامة تمثال الحكيم وجلس يترّقب. وحين مّر الأمير الرّقاص جّره رجال الدرك من طوقه وأبعدوه عن طريقه، فنهرهم الأمير:

fb/mashro3pdf

ـ ارفعوا أيديكم عن الرجل العجوز، وأعطوه حسنة.

ـ بل أريد كلمة يا رَقاص.

أدار الأمير ظهره للكلام ومضى، وتبعه صاحب النياشين يحجل خلف ركبه لاهثا:

ـ خبّرني من أكون يا رَقاص، خبروني من أنا يا أهل الخير..

في الليل الثالث جاع، أسند ظهره إلي عمود المنادى وجلس، مَد يديه للعابرين:

ـ خبّروني يا أهل الخير من أكون إن لم اكن أنا، خبّروني يا أهل الخير..

في ليالي الشتاء الطويلة يأكل كسرات خبز جافة، ويتمدد وسط كومة من قش جنب قاعدة العمود، وهو في عتمته يفكر ويصغي إلي ضحك التمثال ونواحه حتى ينام.

يأتي سلامة في الليل ومعه الإبريق، ينكش كومة القش ويسقيه، يمصّ ويلهث:

ـ إن تكن تدرى فخبرني من أنا.

يبلع سلامة لسانه، يسقيه ويغطيه ويمضى.

في الصباح يأتي ظّل التراب تتبعه ذئابه، ينكش القش، ويأكل من خبزه الجاف، ثم يضرب الأرض بقدمه ويشكو:

ـ ضيّعني الغريب الملثم، أخذ مالي القليل وخطف قلب نهرّية وهرب.

لا يكف الفتى عن الشكوى وهو يخيط كيسا من خيش ويحشوه بالقش ليكون لحافا لصاحبه:

fb/mashro3pdf

ـ ضيّعني، وضّيعك أيضا يا صاحب النياشين حين فضح ذهبك المغشوش، وضيع الجميلة نهرّية حين ربطها إليه بعقد لا فراق فيه.

يسمعه ويهرش؛ بطنه منفوخ، وفي فمه مرارة، وتحت جلده عناكب دّقت أوتادها في اللحم، ومّدت خيوطها تحت عظام الترقوة وحول السّرة. يتأمل الخطوط الصفراء ويحّدث نفسه: "العناكب سكنت كبدى".

يعطش كثيرا، يتمشى إلي سبيل العِجْلة بخطى واهنة وعباءة مهلهلة تطّير ريح الشتاء مزقها وتكشف عورته. يخفف مرارة جوفه بالماء، ويعود إلي مكانه جنب العمود. يفعلها كثيرا في النهار، أما في الليل فيترّقب مجيء سلامة بعينين مفتوحتين ونفس لاهث تحت كومة القش، يمصّ شراب السراب من بزبوز الإبريق، ويشكر.

وفي القصر الكبير العالي، تتأرجح العناكب في خيوطها، وتنشد:

"العتمة فسيحة، والسقوف عالية، هوه .. هوه. صغيركم غّطوه، وبابكم سّدوه، هوه .. هوه. والكلب أبعدوه، هوه .. هوه."

fb/mashro3pdf

ليلة غرام

في بيت العرس على شاطئ النهر، تتقلّب نهرّية على سرر الوحشة، ثم تنهض في آخر الليل، فتفتح شَبّاكها على الماء، وتناجي الحبيب الغائب:

ـ زرعت بستانا ووهبته لك، لكنك نذرته للفوات، فلا رويت، ولا آنست ولا إئتنست.

رؤساء الأرض صلصلوا بأجراس الذهب وناموا على العتبات، لم يُفتح لهم باب. لك وحدك فتحت، وهّيأت الأرائك بورد ذي عطر، من كل صنف وردة. ورودي تنتظر فلا تبطئ، قد يتلفها طَل الصباح.

أبوابي مفتوحة فكيف أنام، وأغصاني مثقلة بالتين والرمّان، فمن يحرسها من نظرات أبناء الليل عابرى سبل الغواية.

واخجلي إذا شاخت ألواني وتبدد عطري وانكسرت أغصاني، ثم جئت أيها الحبيب فأنكرتني، كيف استجمع ظلي لأفرشه لك، وأنا يومئذ حطب لا ظل له ولا ثمر.

وفي ساحة النار في الحجرات المغلقة يخلع الجمال لثامه، يتعّرى أمام مرآة دعد، ويفرط عناقيد أسراره:

ـ سلكت طريقا غير طريقي، وطرقت بابا ليس لي، فما أقول لأهل الدار. وأخفيت وجهي بلثام، فبأي لسان أتكلم إذا انكشف لثامي؟

fb/mashro3pdf

لو تنتظرين.

لعجنت جسدي بـتراب الأرض، وأنشـأت نفسـي خلقـا جديـدا، وجئت إليك بلا لثام، أحمل من كل أرض حسنا ومن كل ريح قوّة.

هل تنتظرين أيتها الجـميلة، وهـل يمهلك الزمـان فـلا يخلـف المواعيد؟

آه إذا أخلف، وأتيت فلـم أجدك. هـل أكـون عندئـذ غـير حسـرة عشق، تدحرجها شموس الأيام على جـمرات الشوق، وتكوّمها رياح الليالي في كهوف الوحشة.

fb/mashro3pdf

السلطان عَو

في أيامه الأخيرة زادت مرارة جوفه وانتفاخ بطنه، وامتـدت خيـوط العناكب تحت جلد الرقبة وحول العينين. يهرش ويلهث في مكانه:

ـ شربة ماء يا أهل الخير، كسرة خبز يا أهل الخير، خبّروني مـن أنا يا أهل الخير.

في ذلك الصباح نكـش راعـي الذئـاب كومـة القّش فوجـده ينتظره بعينين شاخصتين، في حلقه دم، وبين شفتيه كلمة معلقة، بصقها مـع دمه:

ـ خذها.

تدلي فكه مع آخر حرف في الكلمة، وتجـمدت نظرته. دمعت عـين الفتى وهو يسـدل جفونـه ويغلـق فكيـه ويفـرد أصابعـه المنقبضـة علـى النياشين. لفها في منديل وعقده حول رقبته، وسأل نفسه: *"ماذا أفعـل بها؟"*

حتى الضحى كانت الدمـوع مـا تـزال في عينيـه، مسـحها بطـرف قطعة من خيش يستر بها عورته، وقال لسلامة:

ـ مـات في الصبـاح، حفـرت له وكفّنته بثوبـي الوحيـد، ودفناه جنب العمود. الآن لا أجد من أشكو له همي.

وندب حَظه:

ـ ضيّعني الغريب الملثم وهرب، لا أعرف مكانه، ولا يعرفه هنـا إلا السلطان، لكن من يفتح لي أبوابه فأطلع وأشـكو لـه ممـا فعـل صاحبـه

fb/mashro3pdf

بي.

كان سلامة يشرب ويلعب بربطة من المفاتيح، وضعها في يد الفتى، وقال له:

ـ خذها، تنفعك.

ـ ما هذه؟!

ـ مفاتيح القصر الكبير.

ـ هه!

بلع سلامة لسانه، وتشاغل عنه بصب ماء الطلّ في الإبريق.

ظل الفتى يدير الفكرة في رأسه طوال النهار، وهو يصغى إلى صوت يتقلب فى بوق المنادى بين ضحك ونواح، وفي الليل حسم أمره وسار إلى القصر الكبير.

خدع رئيس الدرك بذئابه؛ تركها تحوم حول قوس الحرّية لتشغل عين الرجل، وتسحّب هو في ظل السور حتى بلغ باب القصر؛ دخل وتبعته ذئابه. تخبّط في عتمة الدرج الطويل، وجلس على البسطات الفسيحة بين دور ودور يستريح وينادى:

ـ الأمان يا سلطان.

لم يجاوبه أحد. طلع، أشعل قناديل الديوان؛ غبار على الكرسي وعناكب في الأركان، صمْت. الآن بدأ يفهم، نفض التراب وجلس. استراح ونفخ صدره، وقال لذئابه:

ـ الآن أنا السلطان.

دمعت عينه على صاحبه الذي كَفنه بثوبه الوحيد، فك عقدة المنديل المعلق فى رقبته فبرق ذهب النياشين، وقال لذئابه:

fb/mashro3pdf

ـ أنكرته ولم ينكرني، وفضلني على ابنه بشاراته ونياشينه.

سطعت الأنوار في شرفات قصر السلطنة؛ فأشرقت عيون الناس بالبهجة:

ـ أخيرا؛ السلطان أضاء قناديله.

وانكسف وجه ظل النسيم:

ـ أحدهم اغتصب الحكم.

فصحح الرقاص الكلام:

ـ بل اغتصب القصر، أما الحكم فما زال باسم العقرب الصغير، وبأيدينا أمر العساكر والدرك والمال.

ـ كيف جرؤ؟!

ـ أهبل وعملها، سجن نفسه فوق.

ـ بعد قليل ينزل، ويذبحنا.

ـ نزوله موته.

ـ وجلوسه فوق؟

ـ موت أسرع.

ـ ويضيع الكرسي من ولدى في انتظار موته؟!

ـ يا بنت الرّقاص؛ الناس يعرفون أن الجالس فوق هو العقرب؛ فإن هدمنا القصر على رأسه لامونا وقالوا: *"غدروا به"*، وإن عرفوا الحقيقة

fb/mashro3pdf

ضحكوا علينا وقالوا: *"مسخرة"*.

وقبل أن يغلق الباب خلفه قال:

ـ يا بنت الرّقاص اصبري: حق الولد محفوظ، والعقرب فوق.

ابتسم وخرج، هي لم تبتسم، الكلام لم يطمئنها، وفي رأسها أفكار أخرى سوداء. فكرت: *"هل ألوم نفسي، موته صعب، لكن كأنه دبر كل شئ بنفسه، ضيعني وضيع الولد معه"*. وتحسّرت على حالها: *"يا ويلي"*.

وفي تلك الليلة أمر الرقاص العساكر فساروا في الشوارع ينثرون حبّات الذهب، وأمامهم طبلة وزمّارة، ومناد يهتف:

ـ السلطان نوّر قناديله.

وخلف الموكب الليلي صبيان وبنات، يتعثّرون في أطراف الجلابيب، ويبحثون عن حبّات الذهب على ضوء فوانيسهم الصغيرة.

سمع السلطان الطبل والزمر فانبسط قلبه، وقف في الشرفة وسط سحب الشتاء ونجومه المرتجفة يلوّح للشعب الفرحان. فكر في حاله، وقال لنفسه: *"للسعد مواعيد"*. ظل في الشرفة حتى أحّس بالبرد فدخل وجلس، لم أطراف الخيش حول بدنه، وقال لذئابه:

ـ جوعان.

عيون شاخصة، وآذان نافرة. يعرف؛ هي أيضا جائعة.

منذ دخل القصر لم ينم، ظل يترقب العيون الجائعة وتترقبه.

fb/mashro3pdf

كانت تـدور خلفـه وهـو يبحـث في حجـرات القصـر؛ أطبـاق وأبـاريق فارغة، حتى زيت القناديل بدأ يجف، انطفأت واحدا فواحدا.

في الليل الثالث افترسته الذئاب.

كانت الصفرة ترشح من بقايا اللحم، والعناكب تنسج خيوطها بـين أركان العتـمة، وتنشد للأصفر الخالد حتى في وجوه الموتـى: *"الرئيس على كل لون، الباقي وغيره إلى زوال"*.

fb/mashro3pdf

حصان للولد

رغم إظلام الشرفات وبـرد الشـتاء ظـل صبيـان وبنـات يسـهرون في الساحة، كانوا يلّوحون بفوانيسهم الصغيرة، ويغنون:

ـ السلطان نوّر قناديله.

فيجاوبهم صوت من فوق:

ـ عَوْ.

قالوا لبعضهم: *"السلطان يلاعبنا"*، ولاعبوه:

ـ عو .. عو.

فجاوبهم الصوت:

ـ عو.

كان رجال الدرك يحاولون إبعادهم عـن السـاحة، وهـم يلاعبونهـم أيضا، يشمرون جلابيبهم ويجرون، يضحكون وينفلتون من بين أيديهم وأقدامهم ليعودوا إلى أماكنهم تحت الشرفات:

ـ عو .. عو.

ـ عو.

ولام الأمير الرّقاص رئيس الدرك:

ـ لماذا لـم تخل الساحة حتى الآن كما أمرتك؟

ـ حفظتك العتـمة يا سيدي، أطفال فماذا أفعل معهم.

fb/mashro3pdf

ـ يا غبي، اسحبهم إلي خارج الساحة بطبلة وزمارة، ثم فرّقهم بخيزرانة، وبعدها أطفئ كل نور في الأرض، واجعل على كل حارة حارسا يمنع أهلها من فتح باب أو شباك.

فلما خلت الساحة وساد الصمت والظلام، قال الأمير لرئيس الجند:

ـ الآن تحرّك، وإذا ظهر أول ضوء قبل أن تتم عملك وضعت لحمك على هذا المنجنيق في الليلة المقبلة.

وأطلع رئيس الجند رجاله على الخطة، فنصبوا المنجنيق، وأحكموا التصويب، ثم وضعوا عليه لحما مسموما وقذفوا به إلى شرفات القصر. ولما تأكدوا انهم أصابوا الهدف انتظروا ساعة حتى تلاشت أصوات الذئاب، ثم هجموا على الباب فكسروه وطلعوا فوق.

وفي الصباح اصطف العساكر في ساحة النار، فزمّروا وصاحوا:

ـ أعز الله ظل السلطان مفتاح.

ونادى المنادى:

ـ مات العقرب الصغير، في الليل أطل على أولادكم من شرفاته فلاعبهم وأوصاهم بالفرح، وأوصى بمفاتيح الحكم لولده مفتاح.

فقال الصغار للكبار:

ـ نعم سمعناه في الليل، لاعبنا وقال: "عو".

في ذلك الوقت؛ كانت ظلّ النسيم في الحمام، تدلّك جلد الولد باللوف والصابون، وتنفض منخريه من الوسخ. نشفته ومشطت شعره، ثم لاطفته وهى تسقيه كوب الحليب:

ـ الآن أنت السلطان.

fb/mashro3pdf

ـ وأبى؟!

ـ أبوك كان سلطانا، الآن أنت السلطان.

ثم طلعت إلي الأمراء فأوصتهم به خيرا:

ـ يتيم، لم يعد له غيركم.

ـ حفظتك العتمة وطال عمرك يا أم السلطان، الولد ولدك والفرح فرحك.

وتحرّك الركب، على رأسه طابور من العساكر وطبلة وزمارة وخادم يرّش حبّات الذهب، وخلف الطابور صفوف من الأمراء على بغال معكومة بسيور من الذهب والفضة، يتوسطهم السلطان مفتاح، على يمينه أمه ظل النسيم، وعلى يساره جده الأمير الرقّاص.

كان فرح الصغار بالسلطان اكثر من فرح الكبار، وزادت بهجتهم حين توقف أمام دكان ظل النار الحداد، أشار بفرح إلى الحصان الحديدي الذي صنعه زمبلك الزمان:

ـ حصان يا جدي.

فنهره الرقاص همسا:

ـ عيب يا سلطان.

ـ أريده.

ورقّ له قلب أمه:

ـ حبّة عيني؛ هذا يوم فرحه فدعه يأخذ ما يريد.

ملأ زمبلك الزمان النابض بالحركة. ثم ركب السلطان الحصان الحديدي، وطاف به حتى العصر والصغار يهللون حوله:

ـ دربن دن دن .. دن دن دربن.

fb/mashro3pdf

ولما اكتمل الطواف تشبث السلطان بالحصان فحملوه معه إلي الديوان. وكافأ الأمير الرّقاص زمبلك الزمان على صناعته، فناوله صّرة من الذهب:

ـ خذ يا فتى، واعمل لنفسك غيره.

ومن بهجة ما جرى في ذلك اليوم عمل صانعو الفخار تذكارات له؛ تماثيل من فخار احمر ينادون عليها في الشوارع:

ـ حصان للولد.

ثم صار بائعو الحلوى يصنعونها من سكر، ففّضله الصغار على غيره، وكان الطفل يشترى الحصان ويضعه جنب مرقده، فهو بين اليقظة والنوم يمتطيه بعين خياله، ويجوب به الأرض والآفاق، وفي ليالي الجوع يبدأ خلسة في تهشيم حوافه، ويأكله على مر الأيام قطعة فقطعة.

fb/mashro3pdf

عسكر وحرامية

وجلس السلطان مفتاح للحكم وعمره أحد عشر عاما، وهو لا يعرف من الدنيا غير اللعب. وكان أحب الألعاب إلى قلبه لعبة العسكر والحرامية، فلعبها مع أمرائه، وقسمهم إلى فريقين، يلعب مع هؤلاء مرة ومع هؤلاء أخرى.

ونبه السلطان في لعبه رئيسا على الجميع حتى اختلط الأمر على الناس، فكانوا إذا استوقفهم رجال الدرك وسألوهم:

ـ معنا أم معهم؟

أجابوا:

ـ بل مع السلطان.

وفي تلك الفترة شاع غناء لطيف على ألسنة الشحاذين الذين كثر طوافهم على الأبواب ينقرون الدفوف، ومن ذلك قولهم:

ـ يا شبيه البدر في حسنه

صحبتك في الليل حرامية

روّعوا النّايم على غصنه

والقلل نشفت من المية

والحرامي في كلام العامة غير اللص؛ فاللص هو السارق في ستر مخالفا للقانون، والحرامي أعم واشمل فهو فاعل الحرام وناهب

fb/mashro3pdf

الحقوق في الستر والعلن ولو بالقانون.

وغناء هؤلاء فصيح اللفظ عامي السَبك، إذا قَومت حركاته وسكناته على الصحيح انفرط عقد النظم. وشعرهم محدث، وقيل بل قديم وأول من أنشده هو الحصيف، وبسببه كان هروبه في عهد الأمير ظل الثور. وقيل أن المعانى له والنظم لغيره، وقيل بل منتحل كله، وأن الناس نسبوه إليه بعد فراره ليتجنبوا الأذى.

والغناء سابق على الشعر، وأساسه تنغيم الصوت وتلوينه بحزن أو بفرح، فلما نضجت العقول وصار للصوت معنى يتفق عليه الناس، انتظمت المعاني بالنغمات. وأول من اتخذ الشعر صناعة في لغتنا هو ناصح بن نعناعة في عهد حكيم بنى سعد، ومن اسمه أخذ الشعر معناه على اختلاف الشعراء في هذا المعنى.

وفي اللغة نصح الناس أي أرشدهم بلا غرض يشوب نصحه، ونصح الثوب أي أجاد خياطته. ومن تقّلب الكلمة على المعنى الأخير قولهم النّاصح يقصدون الخياط، والمنصح بكسر الميم أي الإبرة، والنصاح بتشديد النون وضمها أي الخيط.

ومن غرائب لغتنا أن يكون للكلمة المنطوقة معنى غيره وهى مكتوبة وكلاهما فصيح، فقولك لأحدهم "يا ناصح" مع الغمز بالعين، فيه من المعاني ما لا تقرأه العين في الكتابة.

وبين الفصاحة والنصاحة صلة؛ فالفصاحة طلب المعنى خالصا، والنصاحة لفق المعاني بإبر البديع بغرض خياطة العقول، وقيل أن الشعر على الوجهين. وكان شعر ناصح من هذا وذاك؛ فابتدأ ناصحا مشيرا وانتهى ناصحا خياطا.

fb/mashro3pdf

ومن شعرائنا القامط الكبير الذي ابتدع لونا من الشعر حمل اسمه وهو القمط. والقمط عند العامة انقباض الفرج والإست، أما في صحيح اللغة فيقال قمط الشيء أي ربطه، وقمط الأسير أي قيده. والشاعر القامط هو المقيد اللسان بغرض يسوق كلامه إليه مثل المديح والهجاء أو ما شابههما من أغراض السياسة.

لكن أهل الرّبابة يسيرون على غير ذلك، ويقولون: *"أجود الكلام ما تقوله ويقولك"*، وعلى هذا المعنى كان قول أبو ربابة: *"ساعة تسوق الربابة، وساعة تسوقك"*.

ومن سلالة القامط الكبير انحدر شعراء كبار، آخرهم القامط على الهواء الذي ذهب بهذا اللون من الشعر إلى غير ما أراد مؤسسه، إذ جعل من اللاقصد قصدا ومن اللامعنى معنى فلا تقبض من كلامه إلا ريحا، وهو مذهب لا يخلو من سياسة ونصاحة. وأغلب شعراء هذا المذهب من خريجي معهد "أقول لا" لكنهم حصلوا على شهادات أعلى من معهد "أقول آه".

وأشهر شعراء زماننا هو الخياط، وكان في مبتدأ أمره خياطا للسراويل، فلّما ضاقت الأحوال بالناس استغنوا عنها فكسدت بضاعته، وخاط النعال فكسدت، فتحول إلى خياطة السروج والبراذع، وطال العرى الحيوانات فتحّول إلى الشعر. وكان اكتسب من حرفته دندنة ظلت تزن في رأسه حتى نظمت قوله، وأغلب شعره أبيات مفردة يسمى الواحد منها "غرزة".

وأساس الصناعة عنده تفصيل القماش على جسم مجهول، فإذا ظهر عيب في صناعة اليد أو اللسان قال: *"هكذا تخيلته، والخيال هو*

fb/mashro3pdf

الظل، والظل حق."

فلما نبغ الخياط بيننا سار أهل حرفته على نهجه، وأفلحت معهم اللعبة فخيّطونا.

وكان الخياط صاحب حظوة لدى السلطان مفتاح؛ يخصف له النعال والسروج ويرتق أحلام صباه بغرز شعره. وأنشده مرة وسط أمرائه:

ـ أكرم بمن خاطك؛ لا خيطه

بان، ولا تكلّف الصنعة.

فلكزه أحد الأمراء من خلف ونهره:

ـ اعقد الخيط، واقطع.

فلم يستطع أن يمسك لسانه، وأضاف غرزة أخرى منشدا:

ـ وشّاك بالفرح؛ فلا عقدة

تعبس في الخد، ولا دمعة.

ولم يفهم السلطان الكلام لكنه استحسن السبك، وسأل الأمراء:

ـ ما رأيكم؟

ـ الرأي رأيك، وهو توّهم فيك أمرا مرّده إليك.

ـ فكافئوه من جنس ما توهّم فيّ.

فأجلسوه على الخازوق.

ولم يطل حزن السلطان على شاعره، وتسلى عن همه بالحصان الحديدي. وكان أحب الأوقات إلى قلبه حين يأتي إليه زمبلك الزمان ليشحم تروس الحصان ويملأ النابض بالحركة. يغلق الأبواب، ويدور بالحصان في الديوان ضاحكا متحدثا عن ألاعيبه مع الأمراء وهو

fb/mashro3pdf

يتحسس زغب شاربه:

ـ كل ليلة أعيد تقسيمهم إلى فريقين؛ أدّبر لهؤلاء حيلة، وأدّبر لهؤلاء أخرى، ولى فوق التدبير تدبير. ما عندهم شئ لا أعرفه، وأسرارهم في جيبي، وإن غدرت بفريق من الإثنين ضيّعته.

ـ لكن الناس تعبوا يا سيدي.

ـ الناس في اللعبة أيضا يا عم زمبلك، لكن حظ الأمير غير حظ الأجير.

وذات مرة أعطاه السلطان مفتاحا ذهبيا وقال:

ـ العب معنا.

ـ ما هذا؟

ـ مفتاح كنوزي الخاصة؛ هى فى صندوق خبأته في سراديب الرمال التي حفرها راعى الذئاب الملقب بظل الذهب، افتح ووزع على الناس بقدر ما يبقى على أنفاسهم.

ولوّح له بالسيف:

ـ معي مفتاح ومعك مفتاح، احفظ السّر.

ولم يبح زمبلك الزمان؛ همّ أكثر من مَرة أن يكشف سرّه لظل النار، لكنه أمسك لسانه في اللحظات الأخيرة. كان يميل عليه هامسا:

ـ الغريب أنه يعرف كل صغيرة وكبيرة.

ـ يا بنى كل شئ يجرى بأمره، كل صغيرة وكبيرة بأمره هو.

ـ هو صغير بينهم، وهو واحد وهم كثير.

ـ هو كبير بهم، صغير بينهم.

ـ يقول انه يجرّبهم ويراقب أفعالهم ليفهم.

fb/mashro3pdf

ـ الكلام حق والفعل باطل.

ـ له بعد ذلك تدبير.

ـ له تدبير، ولهم تدبير.

يطرق ظل النـار الحديـد المحمـى بيسـراه القويـة، فتـتردد أصـداء طرقاته فى السماوات وتخشـع لهـا الأرض، أمـا زمبلـك فيطبـق فكيـه ويتأرجح على حافة الصمت وهو يتحسس المفتاح في جيبه: *"ماذا أفعل به؟"*.

ارتاحت أم النور لسكوته، وهل ضَيع أباه غير الكلام. كل مَرة تـمط رقبتها وتدّس نظـراتهـا بين الشفاة الهامسـة لكنهـا لا تسـمع؛ كـبرت وشاخت أذناها.

يقلقها حال الولد؛ تدلى شاربه واشتد سواد عينيه، لكن قلبه خـال من الفرح، في وجهـه حيرة وفي جوفه كلام. أحيانـا تحدثـه عـن بنـات يترقبنه في الشبابيك، يغمغم بكلام لا تسمعه، ويدير ظهره للحديث.

هذه المَرة أيضـا حـاولت أن تجـره إلى الحديـث، لكنـه أدار ظهـره للبيت كله وخرج، ذهب إلى دار السراب.

استقبله سلامة بظهر محّدودب وعينين كليلتـين، كـان وحـده يعـد الأقداح ويشعل القناديل، وبيـاض شـعر رأسـه ولحيتـه يطّوق نظراتـه الغاربة وصوته المرتعش:

ـ أنت ابن ظّل النار، أظنك هو.

ـ أبى هو أبو النور، أما ظّل النار فتزوج أمي بعده.

ـ هو أبوك أيضا؛ زمان قال سرحان عـن ابـن العِجْلـة: *"الولـد لـن رّباه ولمن أرضعته"*.

fb/mashro3pdf

ـ لهذا قّصوا لسانه؛ كذب فقصوه.

ـ أو ربما صدق فقّصوه، ألا تجرى الأمور أحيانا على هذا النحو؟

داهمه الكلام فسكت. تفادى نظرات الجالسين حوله، وأطرق يتأمل صورته في ماء السراب، ويصغي لصوت خافت متقطع ينفلت من بوق عمود المنادى، كان يصغي ويسأل نفسه: *"أهو ضحك أم بكاء؟"*.

في تلك الليلة اشتاق قلبه إلى صاحبه ظل الماء، تذكر لعبهما قرب عمود المنادى فدمعت عيناه. مشى على الشاطئ يبحث عن أحد التجار الغرباء ليسأله عن صاحبه، وكان عددهم قد قل في ذلك الزمان، فلم يجد إلا عجوزا يبيع المحار، فلما سأله طرق جبينه بإصبعه وقال:

ـ لا نعرف عند ملتقى النهر العذب بالبحر المالح إلا شيخا ساجدا يسبّح، قدماه على صخر أسود وجبينه على الماء. ربما كان هو صاحبك الذي وصفته بالقوة والعزم، وتطاول على البحر الكبير يوما فلطمته الأمواج ومزقت شراعه وكسّرت ألواحه، فهو في سجوده وخضوعه إلي اليوم.

وكانت ليلة لعب فيها السلطان مفتاح مع أمرائه وطالت اللعبة حتى داخ، فانصرف إلى الديوان وترك فريقه يكمل، فأبدعوا من بعده، ولم يتركوا لباسا على حبل غسيل ولا رغيفا في سّلة، فغضب السلطان من أفعال فريقه، وقال لهم:

ـ إذا جاعوا لم يعملوا ولم يكسبوا، وما وجدتم شيئا في بيوتهم ولا جيوبهم، أعطوهم الفرصة حتى يستمر الشغل، ولا تقربوا عدة الصانع ولا قوت يومه.

fb/mashro3pdf

فاستصغر أحد الأمراء كلام السلطان، وقال لصاحبه:

ـ كلام عيال.

وسرت الكلمة بين الأمراء فجمعتهم على أمر، فساروا إلى القصر فريقا واحدا، ودخلوا على السلطان وهو راكب حصانه الحديدي، فجرّوه من فوقه وذبحوه، ثم ساروا إلى بقية أهله بالسكاكين.

fb/mashro3pdf

عروس للبنات

في ليلة المذبحة، فرّت ظل النسيم من قصرها، متنكرة في زي تاجر غريب سماه الناس ذات يوم ظل الزئبق.

قمر، وسماء صيف، وعلى الأرض نار وصراخ وأبواب تتكسر. تقدمها ظل الفأر على طريق النهر وظله يطول ويقصر تحت خطاه. كان ينحني مهرولا بركبتين منفرجتين بين شجرة وأخرى، ثم يلهث ويشير لها من خلف جذع:

ـ هيا.

ـ أخلصت لنا حتى النهاية.

ـ كنت بينكم ضعيفا قليل الشأن، فما انفتحت أبوابكم لي إلا بإخلاصي. الآن زالت قوتكم ولازمني الإخلاص.

ـ صغرنا وكبرت يا ظل الفأر.

ـ كبرت بكم، الآن أكبر من أجلكم.

ـ محوتني يا فتى، وردمت بعطاء إخلاصك هاوية نفسي.

قادها إلى بيت العرس على شاطئ النهر، وحّياها:

ـ إلى لقاء يا سيدتي.

ـ بل قل وداعا؛ فما أظن إلا أنها النهاية.

ـ تتشابه عليّ النهايات والبدايات.

ـ لا أفهم كلامك، لكن صوتك يحزنني.

fb/mashro3pdf

ـ للفهم وقت، وما أظن وقتنا يتسع الآن، فخلفنا مشاعل ونصال تبرق، وخطى تطلب آثار ظلالنا.

وانحنى يقبل أطراف أصابعها:

ـ سلاما يا سيدتي، ويا بنت سيدي الرقاص، الذي كانت به الحركة والبركة.

فلما انصرف طرقت الباب:

ـ افتحي يا نهرية.

ـ من؟

ـ أنا الهارب إليك، سلكت سبل الليل، وجئت حافيا تلسع ظهري حرائق أيامي.

ـ من؟

ـ أنا الملثم الذي خفي حتى على نفسه، جاء يطرق الأبواب باحثا عمن يطلعه على أمر ذاته.

ـ من؟

ـ أنا من لعب بزئبق الحب، فخلصه الزئبق من شوائبه، ولم يبق له من نفسه شئ.

ـ من؟

ـ أنا ظل الزئبق، فمن يقدر أن يدركني، وهل أقدر أن أدرك نفسي.

ـ أهو أنت؟!

ذبالة قنديل ودفق هواء مع انفراج باب. تعانق ظلان في ارتعاش الذبالة، وقال ظل لظل:

fb/mashro3pdf

ـ ألف ليلة مضت، ضاءت نجوم وانطفأت نجوم، وخفقت سحب كثيرة. ألف ليل وألف نهار، لم يخفق شراع الحبيب في أفقي، ولا سرى خبط مجاديفه في أحشاء نهري.

ـ مركب بلا شراع فكيف يسلك طريقه، ولا مجاديف له فكيف يعاند التيار؟!

ـ هنا مرفأك فاهدأ، ملاءة عشب، وحشايا من كل ورد ذي عطر ولون.

ـ كيف أهدأ وخلفي سكاكين وعيون كارهة؟

ـ ادخل فأنطبق عليك، ألف أغصان جسدي طية فوق طية، وأخفيك عن كل عين كارهة.

فلما تلامس الظلان انكشف اللثام، فانشق ظل عن ظل، وقلب وجهه في الجهات متحيرا:

ـ حبك من جنس حبي، فكيف يتكامل جسدانا في عناق؟!

ـ واخجلي؛ ليس معي مفتاح الباب، فهل اجرؤ أن أقول: *"هو بستاني"*. وليس لدى عذر فهل أستطيع أن أقول: *"اختلطت على الأبواب"*.

ـ من أنت؟

ـ أنا ظل النسيم، حَرمتك على كل الرجال، واصطفيتك لنفسي بعقد لا فراق فيه. سعيت إليك بنار الغيرة، وانتهيت بحيرة العشق.

ـ فما حكاية ظل الزئبق؟

ـ خدعة غافلت بها نفسي، وشرك نصبته لذاتي.

على الباب دقات أيد غلاظ، ونار، وأصوات موت. وفي الداخل

fb/mashro3pdf

شبابيك مفتوحة على نهر، وظلان يتطوحان في ارتعاش الذبالة، وينشدان:

ـ انتظار طويل لا رجعة فيه

وأفق أضيق من كلمة

يا طائر الوقت .. أهّاه

حسنة للعاشق والمعشوق؛

مهلة لكلمة

أهاه

دمعة

أهّاه

نظرة.

أكلت النار خشب الباب، وأحاط دخانها بالظلين.

قال عاشق لمعشوق:

ـ هي مرايا العشق المتقابلة، تتعدد فيها الأشكال وتتبدد.

وقال عاشق:

ـ ما رأيت فيك إلا ما رأيت في نفسي.

وقال:

ـ انظرني، فأبصرك.

ثم صلصلت السكاكين على الباب، فاعتنق الظلان على حافة شباك مفتوح على النهر، وأنشد عاشق:

ـ سلاما يا دار الانتظار

سجن العاشق في الزمان

fb/mashro3pdf

أيامك أردية من حجر
ضيقة الأطواق والأساور.

ترنّح العاشق والمعشوق على الحافة، وعاجلهما سهم رمية صياد فشبكهما معا، ثم طوّحتهما الريح فغاصا في النهر. وبعد أيام طرحهما الماء ومازالا معتنقين بالسهم.

ومن عجب ما جرى في ذلك اليوم عمل صانعو الفخار تذكارات له: تماثيل من فخار أحمر، ينادون عليها في الشوارع:

- عروس للبنت.

ثم صار بائعو الحلوى يصنعونها من سكر، ففضلته البنات على غيره. وكانت البنت تشترى العروس، وتضعها جنب مرقدها، فهي بين اليقظة والنوم تتقمص زينتها وسكرها بعين خيالها، وفي ليالي الجوع تبدأ خلسة في تهشيم حوافها، وتأكلها على مر الأيام قطعة فقطعة.

fb/mashro3pdf

حكم الأربعين

واستمرت الفتنة أسبوعا حتى كان نواحٌ في كل بيت، وأكلت النارُ حطبَها حتى لم يبق من الأمراء إلا أربعين. فلما انقشع الدخان، جمعهم كبيرهم في الديوان وصاح فيهم:

ـ عِدّ.

فعدوا من واحد إلي تسعة وثلاثين، وأكمل هو:

ـ أربعون.

وقال لهم:

ـ لا يتم عددكم إلا بي، فأنا المقدم عليكم، وولى أمركم.

ـ فدبّرنا يا كبير.

ـ لو تدافعنا على الكرسي لأكل السيف المزيد منّا، وفقد عددنا كماله. والرأي يا أخوان أن نتداوله بيننا، فيجلس كل واحد شهراً، ويكون الحكم باسم الأربعين في كل الشهور، وغلّة الحكم لكل جالس في شهره، ويكون بقية اخوته عونا له، يأتمرون بأمره، ويضعون كل ما تطوله أيديهم في حجره.

ـ نعم الرأي يا كبير، فاعمل لنا قرعة.

ـ بل أنا أولكم والمقدم عليكم، والقرعة لكم من بعدي.

فرضوا بما اختار، وتعاهدوا على الانضباط في مواعيد الغيار. ودارت

fb/mashro3pdf

عجلة اللعبة بالأربعين على هذا المنوال؛ هذا يقوم وهذا يجلس مع رؤية الهلال، فزاد إحساس الناس بالوقت، وانضبطت أهلة المواعيد.

وانطلق الأربعون، وكثرت السرقة وشح المسروق، حتى كان الرجل يطارد ظله ليسرقه، والأمير يسرق سلاح حارسه. وصارت من ذلك حكايات ومساخر، فلما زادت نصحهم كبيرهم وقال لهم: *"ذلك من الكبائر"*.

وكان مرة أن صادف موعد الغيار أوان جمع الملوخية، فاختلف الجالس مع الواقف على رأسه، وقال له:

ـ يزرعونها في شهري، وتحصدها على الجاهز في شهرك!

فقال الواقف:

ـ الهلال قسّمها.

وزاد الخلاف، فجلس بقية الأربعين للنظر في الأمر، وانقسموا إلى فريقين؛ قال فريق:

ـ نزيد الجالس يومين يعمل فيهما شغله، ويأخذ بعض ما يرى أنه حقه، فيكون ظلم في قسمة الوقت، وعدل في قسمة الرزق، وبذلك نمنع الفتنة.

وقال فريق:

ـ العدل ما حكم به الهلال، ولو زحزحنا موعدا لتزحزحت من بعده مواعيد، وتكررت مرات فتنة نتفادى حدوثها مرة.

وكان الأغلبية على الرأي الأخير فحكموا به، وقال ناس عن ذلك: *"حكم الأربعين ظلم، وصحبتهم عدل"*.

fb/mashro3pdf

لكن الحادثة تكررت، وتحايل الأمراء على الأمر بالولس في رؤية الهلال، فكان "الواقف على رأس الجالس" يجمع الناس في ساحة النار، وينثر حبات الذهب على رؤوسهم، فيهتفون خلفه:

ـ هلّ هلالك.

فيصعد، ويجلس.

وصارت مزايدة بين الأمراء في الدفع، والناس يحصون ما يجمعونه من حبات الذهب، ويقولون لبعضهم: *"خلاف الجالسين رحمة للشغّالين"*.

وزاد الولس حتى تصادف أن رصدوا الهلال في يومين متواليين، وساروا إلى بيت الأمير الواقف فحملوه على أعناقهم إلى ساحة النار، وهتفوا له:

ـ هلّ هلالك.

فصعد سلم القصر، وقال للجالس:

ـ هلالي ظهر.

فشخر له:

ـ هلالي.

ـ بل هو هلال جديد، والتدبير من فوق.

ـ لا يصح أن يكون هلال جديد كل يوم، وإذا كانت رؤية الأمس حقا فشهري بدأ بها، وإن كانت باطلا فهلال اليوم هلالي، واليوم الزيادة ليس من حقك.

وكاد الواقف والجالس أن يشتبكا بالسكاكين، لولا أن أدركهما كبير الأربعين فنصحهما:

fb/mashro3pdf

ـ لو سرنا على ذلك لاشتغلنا عند الناس ولم يشتغلوا هم عندنا، وصارت أقدارنا معلقة بلغوهم، ولعب بنا كل من قال منهم: "رأيت الهلال".

ـ فما ترى يا كبير؟.

ـ الرأي يا أخوان أنه إذا اشتبه الأمر على الواقف وأصر على ما يراه، فله أن يلبس لبس الجالس، لكن يخدمه خدمة الواقف حتى يحل دوره وتثبت الرؤية له بأغلبية الأمراء.

ورضوا برأي كبيرهم، لكن هذه القاعدة لم تحترم، وكانت الغلبة في كل خلاف لمن له الأغلبية بين الأمراء. فلما زادت الخلافات، وكثر الكلام بين الناس؛ استدعى كبير الأربعين زمبلك الزمان وقال له:

ـ أحتاج علمك وعملك.

ـ مرني يا سيدي.

ـ تعرف بأمر اختلافنا في المواعيد، وأنت صاحب نظر في علم التروس والحركة، فابحث عن حل يسهّل علينا المسألة.

ففكر زمبلك أياما، واختبر الأثقال والمحاور، ثم صنع ترسا كبيرا مثبتا من محوره في عمود طويل تثبيتا لا يعوق دوراته، وتحرك أسنة الترس حلقات منظومة في سلسلة، وفي طرف السلسلة ثقل من الحديد يسحبها لأسفل ويدير الترس.

وشرح أمر الآلة لكبير الأربعين:

ـ لا تصل ثقالة السلسلة إلى الأرض إلا في تمام الشهر، عندئذ

fb/mashro3pdf

نسحب السلسلة من طرفها الآخر لتبدأ حركة شهر جديد.

فاختبرها الكبير، وتأكد من مطابقة حركتها لبزوغ الأهلة، ثم نصبها في ساحة النار، وشّد السلسلة وقال لإخوانه:

ـ هي سلسلة الوقت، وميزان الشهور، لكن مرجعنا ثبوت الرؤية، وبأمر الهلال قيامنا وجلوسنا.

فصاحوا خلفه:

ـ كلّه بأمره.

fb/mashro3pdf

الظلالية

التهمت حرائق الفتنة التي شبّت في آخر عهد السلطان مفتاح دار السراب، فحمل سلامة الإبريق الكبير على ظهره، ودار في الشوارع يقرع الصنوج وينادى:

ـ اشرب.

كانت اللؤلؤة تلمع في قاع الإبريق، وهو في حمّالته النحاسية المزخرفة مشدود بسيور من جلد إلى الظهر المحدودب، وصوت سلامة يرشح من بين التجاعيد الداكنة المتقاطعة وسط بياض اللحية والشارب والرأس:

ـ اشرب.

شرب ظل الفأر على مهل، وقال لسلامة:

ـ لكل زمان طعم، ولكل فم مذاق.

كان ظل الفأر قد عاد بعد هروب طويل، أصابه سهم يوم هروبه فعاد أعرج قليل الهمة، وكان قد شاخ وثقل لسانه فلم يهتم لعودته أحد من الأربعين. يعرج في الشوارع والحارات ذاهلا عما حوله، يلتقط ثمار الأشجار الساقطة، ويفكر فيما سلف، ثم يتوقف أمام الأبواب ليحدث الناس بلسان ثقيل عن أسرار عرفها وتاريخ رأى تفاصيل أيامه، يحكى ويلهث. أحيانا يهدأ في ظل جدار أو شجرة ليدون حكمة ما جرى.

ومما دون في أوراقه: *"يجازى الخلف بأعمال السلف، فأعمالهم*

fb/mashro3pdf

أسباب ومقدمات لصلاح من يأتي بعدهم، أو لهلاكهم".

وكتب: *"ليس كل ما تعلمه تفهمه، ولا يكتمل فهم ما حدث إلا بتصور ما سيحدث، فالتاريخ مقدمات متتالية لمقدمات متوالية. وهو ينحل فور اكتماله ليتشكل في مغزى أكبر، ثم ينحل ما تشكل لينـدرج في الأكبر منه، وهكذا بلا نهاية. والمعاني المستقرة هي وقفات لا نهايات.*

ولا يكتمل فهم معنى نزول العقرب الصغير تحت بين الناس، إلا بطلوع راعى الذئاب وجلوسه وحيدا فوق. ولا يكتمل معنى غيرة ظل النسيم، إلا بما جرى بينها وبين الجميلة نهرية يوم جمعهما سهم الموت؛ فهل كانت الغيرة من نهرية أم من العقرب الصغير؟"

ومما كتب: *"اصغوا للمعتوه، فان عثرة لسانه قد تكون من عثرة فكره في فهم عادات لكم تألفونها، وقد يكون فيها غلط".*

وممن عادوا في ذلك الزمان أيضا ظل الماء الذي هرب بمركب أبو شراع يوم عودة نهرية. ذات أصيل ألقاه مركب على الشاطئ، وقال تجار غرباء:

ـ لقيناه يطفو عند صخرة الملتقى بين النهر العذب والبحر المالح، فسحبناه بالشباك.

وكان ظل الماء على كثرة ما عاش ورأى قليل الكلام، وهو على شيخوخته نظيف الثوب والبدن، يغتسل ويغسل ثوبه الوحيد في النهر، وهو إذ يسبح يسبّح:

ـ تبارك النهر؛ ليس بساكن، أوله ماء وآخره ماء، يطفئ نار الشهوة.

fb/mashro3pdf

ويسبّح:
ـ تبارك النهر؛ ماء في ماء، يطفئ نار الغيرة.
ويسبّح:
ـ تبارك النهر؛ ماء على ماء، يطفئ نار الغضب.
ويسبّح:
ـ مبارك الماء؛ يطفئ النار، ولا يطفئ النور.

وفي ذلك الزمان كثر اعتزال الناس الأهل والأشغال، فاعتكف رجال في بيت الانتظار، وهو الضريح الذي بناه ابن العِجْلة لنفسه في حياته ولم يتبدل اسمه بعد موته. واعتكفت نساء في دار العرس التي انتظرت نهرية فيها أعواما تترقب عودة عريسها ظل الزئبق.

ونشط جماعة "أنا مالي" ينشرون كتبهم بين الناس. وهم على مجافاتهم مجالس الأمراء والسلاطين يجعلون لكل من مات منهم مرتبة ومقاما، ولا يجعلون ذلك لغير الأمراء والسلاطين. وهو أمر يحير من يتتبعهم بالدرس، لكنهم يفسرون ذلك في كتب أسرارهم، ويختصرون معنى موقفهم في كلمتين: *"البعد وجد."*

وفي مذهبهم أن أول الزاهدين السلطان ابن العِجْلة، الذي حرم الشهوات على نفسه، وحاربها في الناس حتى كاد يهلك يوم حرب البنات. وأعظمهم السلطان عو، ويعرفون انه راعى الذئاب لا غيره. ويقولون عنه: *"كانت تجارته التراب، واستغنى بالرمال، ولبس الخيش وهو سلطان. وهو إلى زهده كريم؛ صرف قلبه عن فتاته حين رغب فيها غريب، وجاد بثوبه الوحيد على ميت، وزاد أن جاد بجسده على ذئابه حين جاعت".*

أما العقرب الصغير فهو عندهم من أصحاب الحالات لا من أهل

fb/mashro3pdf

المقامات، ويقولون أنه تقلب في أحوال عظيمة، لكنه باح فصغر مقامه. ويروون في ذلك أنه مر به صبيان وهو راقد وسط كومة القش، فلما سمعوا خفق أنفاسه طافوا به يلعبون وينشدون:

ـ يا مسكين

أنت مين؟

فجاوبهم من عتمته مسبحا:

ـ أشهد انه أنا أنا.

وظهر في ذلك الزمان جماعة تعاهدوا بين أنفسهم على ما تعاهد عليه الأربعون، وسموا جماعتهم "الظلالية". وقالوا: *"نحن ظلال الأربعين، نتبع شريعتهم، وكما يدبرون أمورهم فوق ندبر أمورنا تحت، ويظل أمرنا سرا بيننا"*.

فظهرت أفعالهم، وخفيت شخصياتهم. وكانوا أخف وأسرع، وأعلم بما في جيوب الناس وبيوتهم، فسبقت أياديهم أيادي الأربعين، وطالت ما خفي عليهم، فلم يتركوا لهم ما يطولونه بعدهم إلا فوارغ القدور وجلود الخراف.

وكثرت أموال الظلالية، حتى كان الواحد منهم يتصدق على الأمير. واعتاد الأربعون منهم ذلك. وجاء زمان ضاقت فيه الأحوال بالأربعين، فكانوا يطوفون في الشوارع باحثين عن صدقات الظلالية، وهم ينادون:

ـ حسنة للجالس فوق.

fb/mashro3pdf

فتح الكتاب

وطاف رجل ينادى:

ـ أفتح الكتاب.

فناوله زمبلك الزمان حفنة من تمر، وقال له:

ـ اقرأ لي.

ـ ما اسمك يا عم؟

ـ زمبلك.

فحسب أرقام الحروف وجمعها على قاعدة أبجد هوز، ثم فتح الكتاب:

ـ زمبلك؛ ابن النور، محرك التروس، حامل المفتاح، سلسلة الوقت، صاحب التسعة والتسعين.

ـ فما ترى؟

ـ نقطتان كما في كل كتاب؛ حياة وموت.

ـ فما الحياة، وما الموت؟

فتح الكتاب وقلّب صفحاته، ثم طواه تحت يمينه، وقال:

ـ ليس في الكتاب جواب، لكن إن شئت أرد عليك بسؤال من رأسي، ولي عليه أجر.

فناوله زمبلك حفنة تمر، وقال:

ـ هات سؤالك.

fb/mashro3pdf

ـ احتراق الشمعة حياة أم موت؟

حيّره السؤال، فظل بلا نوم ولا طعام وهو يروح ويجئ على شاطئ النهر. فلما رأى ظل الفأر بأوراقه وقلمه، خلع هدومه، ولبس الخيش، ثم وقف بين يديه، وقال له:

ـ أخدمك يا سيدي خدمة الواقف للجالس.

ـ طمعان في شئ؟

ـ ليس أكثر من كلمة.

ـ ما حكايتك؟

ـ اشتريت سؤالا بحفنتي تمر فحيّرني وسهّرني، ولو وجدت الجواب عندك لخدمتك عمري كله.

ـ الخدمة مهنتي، وما تعجبني غير خدمتي لنفسي، البس هدومك، وهات سؤالك.

فلبس وسأله:

ـ احتراق الشمعة حياة أم موت؟

فكر، ونتف شعرات من حاجبيه، ثم هز رأسه، وطوى الأوراق تحت يمينه:

ـ سؤالك أكبر من علمي.

وكان صاحبه ظل الماء قربهما يسبح في النهر ويسبّح:

ـ مبارك الماء؛ يطفئ النار، ولا يطفئ النور.

سمع زمبلك، وراح وجاء، فلما تعب خلع هدومه وجلس تحت شجرة الكافور، وظل أياما يحك جبينه على صخرة الكلام. فلما أتم شنهر الحيرة برقت شرارة الفهم في رأسه، فقام ولبس هدومه.

fb/mashro3pdf

وكان لزمبلك أصحاب، مات بعضهم وهرب آخرون، فسار إلى من بقي منهم، يطرق أبوابهم ويحدثهم بما فهم، ويقول:

ـ معي مفتاح المال وكنوز الفهم.

فاستغربوا كلامه وسألوه:

ـ أأنت من الظلالية يا زمبلك؟!

ـ بل هو ميراث وهبه السلطان مفتاح للناس، أخفاه عن أمرائه وأهل بيته، وأعطاني المفتاح.

ثم اخرج المفتاح الذهبي من جيبه، وقال لهم:

ـ من كان في قلبه شك فليتبعني.

فتبعه ثمانية وتسعون منهم، وهو على رأسهم تمام العدد.

واحتجب زمبلك ورجاله شهرا، وهو يحدثهم في علم الحركة، فلما أتم الشهر ألبسهم قمصان الحديد والطواقي، وقسمهم إلى جناحين؛ يمينه ويساره، وأعطى كل واحد ترسا.

وكان عنده ترسان كبيران، أعطى أولهما لأقرب الناس إلى قلبه؛ ظل النار، وقال له:

ـ أنت ترس الغضب؛ فاحم بنارك الحق.

ـ فما الحق؟

ـ العدل.

ـ فما العدل؟

ـ الرحمة.

ثم التفت يمينه، وأعطى ظل الماء الترس الآخر:

ـ أنت ترس الرحمة؛ فخفف بماء رحمتك نار غضبه ما استطعت.

fb/mashro3pdf

ـ فما الرحمة؟

ـ العدل.

ـ فما العدل؟

ـ الحق.

وقال لرجاله:

ـ أنتم تروس الوقت؛ فسيروا بي.

ـ وأين الفلوس يا زمبلك؟

ـ لو كنت أخرجتها من يومها ما بقيت لأصحابها،ولا أمكّنكم منها حتى نتمكن من أمرنا.

وتحرّك؛ فتبعوه إلى ساحة النار.

غروب، وصبيان وبنات يلعبون عند ضريح السلطان عو بين سبيل العِجْلة وعمود المنادى.كانوا يسقون زهور الحوض، ويلاعبون العابرين:

ـ عو .. عو.

حين عبر زمبلك الزمان ورجاله خافوا. شخللت قمصان الحديد، وثار أمامهم غبار كثير، فتوارى الصغار خلف الضريح حتى مَروا، ثم تبعوهم عن بعد.

وتساءل رجال ونساء من خلف الأبواب والشبابيك:

ـ أهم الظلالية؟

وكانت أم النور تطرق الأبواب، وتبكى:

ـ بل هو ابني زمبلك، أبوه أبو النور، وما هو من الظلالية.

كان ظل الفأر يعرج ويفكر جنب بيت كبير الأربعين، حين سمع الشخللة رفع وجهه وقلّب أذنيه في الجهات مصغياً، رف جفنه وتوهم رؤية الهلال، فتفاءل بالمنظر وصاح:

ـ هلّ هلالك.

fb/mashro3pdf

وأنتبه كبير الأربعين للصيحة فلبس لباسه وطلع يجري، كان الشهر شهره وهو غافل عن الوقت بملاعبة امرأته. تعثر في جريه وعيناه تبحثان عن الهلال، وهو يصيح:

ـ شدّوا السلسلة.

وقبل أن يكررها صدمه منظر التروس فلصق الكلام في حلقه فهو إلى اليوم يجري في الشوارع ويصيح:

ـ الدور دوري؛ شدّوا السلسلة.

وكان سلامة قد سبقهم إلى القصر، دخل الديوان، فوجد بقية الأربعين يتزاحمون للنظر من الشرفات، والجالس واقف بينهم كواحد منهم؛ يبص ويسأل، وهم يرمون السؤال عليه مرة أخرى:

ـ ماذا يجرى تحت؟!

ولما رأى سلامة زاد عجبه:

ـ كيف دخلت هنا، وماذا تفعل؟!

ـ أنا هنا قبل أن يكون القصر، وشغلي خدمة الجالس.

وزادت الشخللة، واشتد خوف الجالس والواقفين، فهربوا بالحبال من الشرفات الخلفية. أما سلامة فكنس، ونور القناديل، ثم نزل بالإبريق يستقبل الزفة على أول السلم، فقرع الصنوج وحياهم ترسا ترسا:

ـ اشرب.

fb/mashro3pdf

ليلة طلوع السلالم

القصر سبعة أدوار، بين كل دور ودور بسطة فسيحة للراحة. وكان بين أصحاب زمبلك الزمان عجائز وأصحاب عاهات، فترفق بهم في الطلوع، وجلس بهم على أول بسطة يحدثهم، وسألهم:

ـ ماذا ترون في بيت المرايا ؟

فقال ترس الغضب:

ـ كسرات المرايا فتنة للبصر؛ لا يرى الناظر فيها إلا هشيم نفسه، فيظن أن ما في البيت إلا هو، وكسرها يمنع الغرور، ولا يمس النفس بأذى.

وقال ترس الرحمة:

ـ في رؤية النفس محبة، يبقى منها في العين شيْ تحمله لكل شئ تنظره، وكلما استوحش البصر بين المناظر عاد ليتعرف على محبتها في مرآة مائة، وما يبطل اليوم يأتي له وقت يصح فيه، وذلك علم الحركة.

فأثنى زمبلك على يمينه ويساره، وقال لتروسه:

ـ الكلام حلو، ولما نطلع نكمله.

ثم تحرك، فصعدوا معه، وشخلل حديد قمصانهم على السلالم.

وجلس بهم على البسطة الثانية، وسألهم:

ـ ما رأيكم فيمن قال: *"ولا تقل لظلك بم"*؟.

fb/mashro3pdf

فقال ترس الغضب:

ـ كلامه حق وإن كان فعله باطلا؛ فالطاعة أساس النظام، وهو أساس العدل، والحجر الذي لا ينتظم في جدار خلعه أحسن.

وقال ترس الرحمة:

ـ ماء آسن ليس بجار؛ فسد وأفسد الزرع حوله، كذلك كلام مات في حلق صاحبه؛ أفسد باطنه وأفسد من حوله.

ـ وكيف يفسد من حوله؟

ـ إذا فسد باطنه تغيرت أفعاله مع الناس، فيسبقه الناس بأفعالهم إلى الأسوأ.

ففكر زمبلك طويلا في المسألة، ثم قال لهم:

ـ نفكر

فيها فوق.

وفي البسطة الثالثة سألهم:

ـ ما رأيكم في عمود المنادى، يبكى ويضحك بلا سبب؟

فقال ترس الغضب:

ـ هو مفسد للهمم؛ إن بشر بالخير تكاسل الناس، وان عزموا وناح تشككوا وقعدوا، وفي الاثنين فوات الأمل.

وقال ترس الرحمة:

ـ يحب الفرحان من يبشره، والحزين من يبكى معه، وهو حبيب الاثنين.وصاحب الأمل لا ينصرف عن غرضه،إلا إذا كان يقينه بخوفه أكبر من يقينه بفلاحه.

فأطرق زمبلك طويلا، ثم قام وقال:

fb/mashro3pdf

ـ وهذه أيضا نفكر فيها فوق.

فلما كانوا في البسطة الرابعة سألوه:

ـ أين الفلوس يا زمبلك؟

ـ المفتاح معي، لكن لا أخبركم بمكانها إلا على آخر السلم.

وصرفهم عن سؤالهم بسؤال من عنده:

ـ ما الجمال؟

فقال ترس:

ـ هو القوة في اكتمالها جمالها، فلا يحلو صوت إلا بسلامة الصدر والفم، ولا تجمل شجرة إلا بصلابة عودها واستقامته.

وقال ترس:

ـ بل هو ائتلاف العين المنظر، وائتلاف الأذن الصوت، وسره في المنظر الجميل كما في العين الناظرة.

فاستحسن زمبلك الكلام، وأثنى على تروسه، ثم تحرك فطلعوا معه.

ولما بلغ البسطة الخامسة بادرهم بسؤال قبل أن يفتحوا أفواههم بكلام:

ـ ما المرض؟

فقال ترس من التروس:

ـ هو فساد في الطبيعة، وتنافر في العناصر.

ـ فما علاجه؟

قال ترس الغضب:

ـ الكي بالنار.

وقال ترس الرحمة:

ـ بل عشبة العطار.

fb/mashro3pdf

وشكا كل ترس كبير صاحبه إلى زمبلك الزمان:

ـ يخالفني في كل كلام، ويعاندني في كل فعل.

ـ واحد علـى يميـني وواحـد علـى يسـارى، وكـل عـين تـرى مـن مكانها.

ـ فاحكم بيننا بالعدل.

ـ لمّا نكمل الطلوع نسمع ونحكم.

وبلغوا البسـطة السادسـة بتعـب، وقـد تخلّعـت مفـاصلهم وشـبكوا أياديهم على الطواقي. وخشـي زمبلـك أن يغلبهـم النـوم إن جلسـوا، فسألهم وهو واقف على رجليه:

ـ ما الفعل، وما الفاعل؟

فقال ترس:

ـ الفعل ظهور القوة بإرادة فاعل.

وقال ترس:

ـ لا تبحث عن الإرادة فالفاعل معروف بهيئته بين الأسمـاء، وهـى الرفع.

وقال ترس:

ـ ما كل مرفوع من الأسماء فاعل، فربما ارتفعت أسماء لا إرادة لهـا في الفعل مثل قولك: *"تحركت الأشجار"*، فـإرادة الفعـل للهـواء الـذي حرك، أما الأشجار فهي قائم بالفعل لصالح فاعل مستتر.

وقال ترس الرحمة:

ـ الكل قائم بالفعل، والفاعل واحد. والأصل انه مستتر بـإرادة منـه وراء جـميع الأفعال، والقائم ظـاهر بـالفعل، فـالرفع حقـه، وإذا أنفـذ

fb/mashro3pdf

الفاعل المستتر إرادته وأحكم احتجابه أنزل المفعول به منزلة نائب الفاعل وكافأه بالرفع مثل قولك: "*ذُبح الطائرُ*".

فوقف له ترس الغضب وقال:

ـ ما عدَل أهل النحو في القسمة، إذ ساووا بين الأصل والظل، وألبسوا المذبوح هيئة من ذبحه.

وطال جدال التروس حتى وقفوا لبعضهم على السلالم، وشخلل الحديد، فحزن قلب زمبلك، وقال:

ـ ضيعتم الوقت فى الضمة والفتحة، ولو تركتم أنفسكم للكلام لنمتم على السلم وما أكملتم معي. هيا يا تروس، فإذا طلعنا فوق نحكم في أمر الضمة والفتحة.

وواصلوا الطلوع، فبلغوا البسطة الأخيرة والديك يصيح: "كوكو.. كو"، فلما سمعه زمبلك تبَسم ونسى تعبه، وسأل التروس:

ـ ما رأيكم في القصر؟

ـ فسيح، ويسع حركتنا أكثر من غيره، وأثاثه جديد.

ـ الأثاث جديد، والأساس قديم.

ـ عيب أم ميزة يا زمبلك؟

ـ كأنما الراكب فارس والحصان عجوز، الميزان عدل بين كفتين.

ـ فزنها بعدلك.

وزنها، وقال:

ـ اكتبوا عندكم أن يكون أول عملنا أن نبني قصرا جديدا على دعائم من حديد، على شاطئ النهر. ويكون للقصر جناحان، ولكل ترس دور في جناح، كل بحسب حجمه وعمله. على رأس الجناح

fb/mashro3pdf

الأيسر ترس الغضب، وعلى الأيمن ترس الرحمة. وبين الجناحين قبة بهيئة صقر، فيها ديوان الجالس، زمبلك الزمان.

فتبسم التروس، وسألوه:

- وأين الفلوس يا زمبلك؟

فلوّح لهم بالمفتاح الذهبي:

- المفتاح معي، والمال في صندوق أخفاه السلطان مفتاح في السراديب التي حفرها السلطان عو خلف ساحة المرايا. ارتاحوا يومين وروحوا هاتوه، واذكروا السلطان مفتاح بالخير، حفظ مال الناس، ولو عاش لليوم لوزعه بيديه.

fb/mashro3pdf

ليالي النزول

واستراحوا يومين، وفى الثالث نزلوا لإحضار الصندوق، فودّعهم زمبلك على رأس السلم، وقال لهم:

ـ شبّكوا أياديكم ببعضها يا تروس، وتمهّلوا في النزول والطلوع حتى لا تتعبوا، واحملوا الصندوق برفق واحرسوه ففيه مال الناس.

ـ ألن تأتى معنا يا زمبلك؟

ـ بل أنتظركم هنا ومعي المفتاح.

وتعلّق ظل الماء وظل النار بيمينه ويساره، وقالا:

ـ نبقى معك؛ نكمل الكلام، ونرتّب الأمور حتى يعودوا.

وودعه بقية التروس ودعوا له:

ـ حفظتك العتمة يا زمبلك.

ـ بل ليحفظنا النور جميعا.

وأعطاهم قناديل، وقال لهم:

ـ علقوها على جدار السلم في نزولكم، لتنوّر طريقكم في الطلوع، فما أظنكم ترجعون إلا بليل وعتمة.

وكان نزولهم السلم في نهار كامل وهو طوال الوقت قائم على رأس السلم يتسمّع شخللة الحديد ووقع الخطى. فلما اطمأن لنزولهم بالسلامة، طلع إلى الشرفة يلوّح لهم براية المحبة، وقال لصاحبيه:

fb/mashro3pdf

ـ منظرهم يفرح النفس؛ يد كل ترس في يد أخيه، وخطوته محسوبة على قدر حركته.

وكان سلامة قد عاد إلي سيرته الأولى في القصر منذ ليلة الطلوع: يجمع ماء الطلّ، ويصبه في الإبريق الكبير، ويخدم أهل القصر دون أن يشعر به أحد.

في تلك الليلة طاف بشرفات القصر وحجراته، أشعل قناديل وأطفأ أخرى. وتسلل بصره ليطمئن على الجالسين في الديوان، فرأى الحديد وقد مال على الحديد من التعب، ونام زمبلك وصاحباه كل واحد على صدر صاحبه، فدخل وغطّاهم، ثم سار إلي غرفته فأحكم إغلاق الباب والشبابيك، وبلع لسانه، ونام.

في آخر الليل وقف الحديد على رجليه في الديوان، وقال زمبلك وصاحباه:

ـ تأخّروا.

وفي النهار راحوا وجاءوا بين رأس السلم والشرفات:

ـ تأخّروا.

وراحوا وجاءوا، فلما جاء الليل الثاني وقع الحديد على الحديد من التعب، ونام الثلاثة على صدور بعضهم، ودخل سلامة فغطاهم، ثم بلع لسانه ونام.

فلما جاء الليل الثالث وقف الحديد في الديوان ولم ينم، وتوجّع زمبلك من أفكاره وسأل صاحبيه:

ـ ايه الحكاية يا ترى؟

فقال ترس الرحمة:

fb/mashro3pdf

- ربما طمرت الرمال السراديب، فهم يحفرون من جديد، ويحتاجون إلى وقت ومساعدة.

وقال ترس الغضب:

- بل سرقوا الصندوق يا زمبلك.

وانضغط زمبلك بين الترسين، فدفعهما عن نفسه برفق، ثم مال رأسه على قميصه الحديدى، وهمس لهما ولنفسه:

- المفتاح معي.

fb/mashro3pdf

سرقوا الصندوق

في الليل الثالث تعب التروس من الحفر، جاعوا وخارت عزائمهم فتكوّموا فوق بعضهم في السرداب، وخبط الحديد بعضه:

- ليس في باطن التل ذهب ولا كنوز، وهو ضحك علينا بالمفتاح حتى أوصلناه إلى فوق.

- بل الصندوق فوق، وهو بخل علينا بالقسمة.

- لو كان في نفسه طمع في المال ما أطلعنا على أمره.

- ومن كان يحميه في الطلوع؟

- ربما كان الصندوق هنا لكن الظلالية سرقوه.

- بل هو أسوأ من الظلالية، سرق أموالهم، وأكل حقنا فيها.

- أهي أموال الظلالية؟

- وربما كنوز مفتاح.

- أو السلطان عَوْ صاحب السرداب.

- أو مال الحكيم، الجالس على تل الذهب في زمانه.

- ليكن صاحب الصندوق من يكون، المهم أين هو الآن؟

- فوق.

- تحت.

- فوق.

- ضحك علينا الثلاثة، وسخَرونا لما لا نعلم.

fb/mashro3pdf

ـ هم عجائز، ونحن عددنا أكبر وقوتنا تغلب مكرهم، نطلع لهم، نكسّر عظامهم، ونأخذ الصندوق والمفتاح.

وطال الجدال، فتسَحّب بعض التروس حتى خرجوا من باطن السرداب، وقالوا لبعضهم:

ـ اللعبة ستطول، وما نضمن العواقب، وسعينا للرزق أنفع لنا.

وداروا في الشوارع، يتعثرون في قمصان الحديد، وينادون:

ـ حسنة للجالس فوق.

وبقى آخرون في السرداب، وقالوا:

ـ مالنا أمر وما بيدنا تدبير، وما علينا إلا الطاعة، فنحن نبقى هنا، نرتاح ساعة ونحفر ساعة، ولابد أن يكون ذهبٌ في باطن التل.

أما الذين اختاروا العصيان فتجمعوا في بئر السلم واحدا بعد آخر، ولما كثر عددهم ووجب عليهم الطلوع، قال بعضهم لبعضهم:

ـ طلوعنا كلنا خسارة لنا، فربما كان الصندوق فوق وربما كان تحت، والرأي أن يطلع بعضنا، ويبقى بعضنا هنا.

ونهض سبعة منهم للطلوع، فبايعهم إخوانهم وقالوا لهم:

ـ لو وجدتموه فوق نادونا وحقنا محفوظ، ولو عثروا عليه تحت نناديكم، وحقكم محفوظ.

وودعوهم على أول السلم، ودعوا لهم:

ـ السعد للطالع.

وطلعوا بتعب، فلما بلغوا البسطة الأولى جلس أحدهم وقال للستة:

ـ تعبت؛ السلالم عالية ودوارة، سبعة أدوار وبين كل دور ودور سفر.

fb/mashro3pdf

فلاموه على جلوسه:

ـ لا طلعت، ولا نزلت.

ـ جلوسي هنا فائدة لكم ولهم؛ إذا نادوا من تحت ما سمعتم النداء فوق، وإذا ناديتم من فوق ما سمعوكم تحت، فأنا أبقى هنا أوصّل النداء، ويكون صوتي قنطرة بين كلامكم وكلامهم، وحقي محفوظ.

ودعا لهم:

ـ السعد للطالع.

وتكررت الحكاية، وعلى كل بسطه جلس واحد وقال لإخوانه:

ـ السعد للطالع.

أما صاحب السعد فبلغ الدرجة الأخيرة مع الغروب.

وصل متعبا، وقد ثقل حديد الطاقيّة على رأسه ولحس شعره، وجرّح القميص معصميه ورقبته. وقف على رأس السلم يتأمل الشفق الأحمر في قباب القصر، وأصغى فلم يسمع إلا تسبيح إخوانه من خلفه:

ـ السعد للطالع.

ودخل الديوان وزمبلك مشغول بتحريك الترسين، فلما رأى زمبلك سواد عينيه وصفرة أسنانه أخرج يده من جيبه وفردها أمامه بالمفتاح، فخطفه منه، ووثب عليه فأوقف حركته وكسر رقبته، ثم دار عليه بالحديد المسنون.

ولما أتم فعله جلس يفكر فى حاله، وقال لنفسه:

ـ كما طلعت له يطلعون لي.

وانكسر زمبلك الزمان فدار التروس على الفاضي، وفي دورانهم

fb/mashro3pdf

أعادوا علينا أخلاطا من حكايات الأولين بلا ترتيب ولا نظام؛ ففلسعنا مع صاحب السعد، وضحكنا مع وعد، وبكينا على ما جرى لدَعْد. وكلّما همّ االعقرب أن يتحرك سبقه ظل الثور وعاد ليجلس في غير دوره، فظل يقوم ويجلس، ويقوم ويجلس، حتى بطّطنا تحته.

فلما تكررت الحكايات درس أحد العارفين خطّ سيرها، ثم قام إلى حديده وناره فصنع ساعة الزمان، وزيّن دائرتها بالعقربين الكبير والصغير، وأخفى خلف واجهتها الزمبلك والتروس.

من أسفل الدائرة يتدلى الرقاص متأرجحا فى سلسلة الوقت، وفى أعلاها شرفة تنفتح كلما اكتملت دورة العقربين، ويبرز منها شبه سلامة فيقرع صنوجه بعدد الأيام.

وهذه الساعة باقية من عجائبنا إلي اليوم، ومكتوب تحتها: *"هذه ساعة الزمان، فيها خطوط سير الأولين والآخرين، وكما كان يكون"*.

fb/mashro3pdf

محمد ناجى

❑ من مواليد سمنود فى محافظة الغربية .

❑ تخرج فى قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة .

❑ يعمل صحفيا بوكالة أنباء الشرق الأوسط ومديرا للتحرير بجريدة «العالم اليوم» .

❑ نشرت أعماله فى مجلات (المصور والآداب «البيروتية» والثقافة الجديدة وصباح الخير والفكر المعاصر والقاهرة وصحيفة «الجمهورية»).

❑ نشرت أجزاء من رواية «مقامات عربية» فى مجلة المصور عام ١٩٩٦ .

❑ صدر له :

رواية «خافية قمر» دار الهلال ١٩٩٤ .

رواية «لحن الصباح» دار مصر العربية ١٩٩٤ .

هذه الرواية

وانكسر «زمبلك الزمان» فدارت التروس على الفاضي. وفى دورانها أعادت علينا أخلاطاً من حكايات الأولين بلا ترتيب ولا نظام ، ففلسعنا مع سعد، وضحكنا مع وعد ، وبكينا على ما جرى لدعد. وكلما همّ العقرب أن يتحرك سبقه ظل الثور وعاد ليجلس فى غير دوره، فظل يقوم ويجلس ، ويقوم ويجلس ، حتى بطّطنا تحته .

fb/mashro3pdf